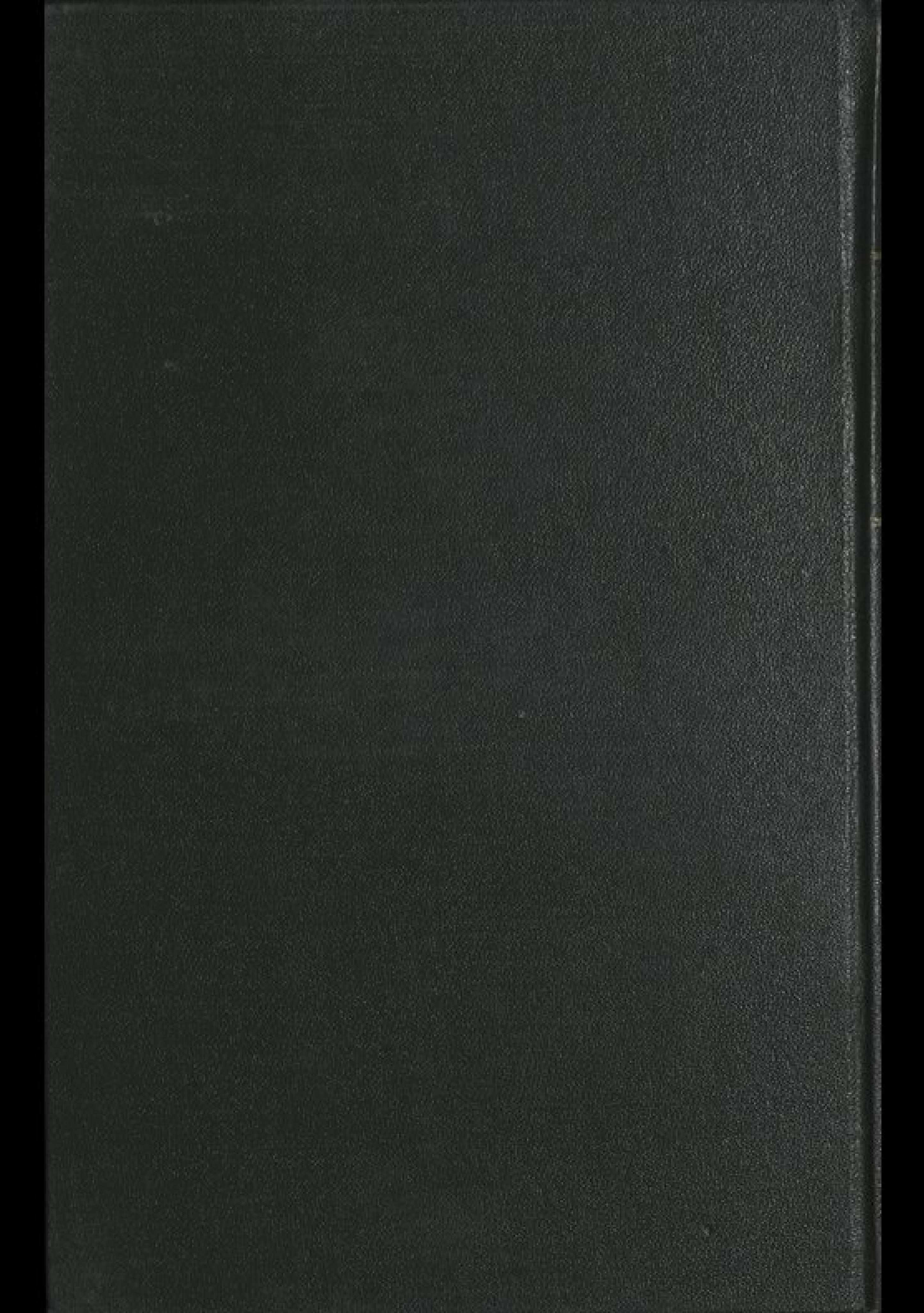
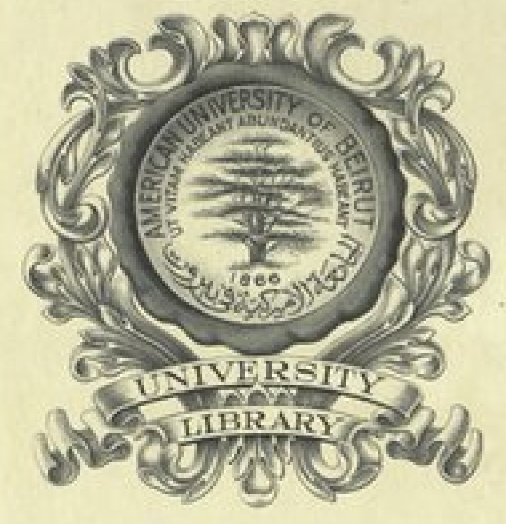
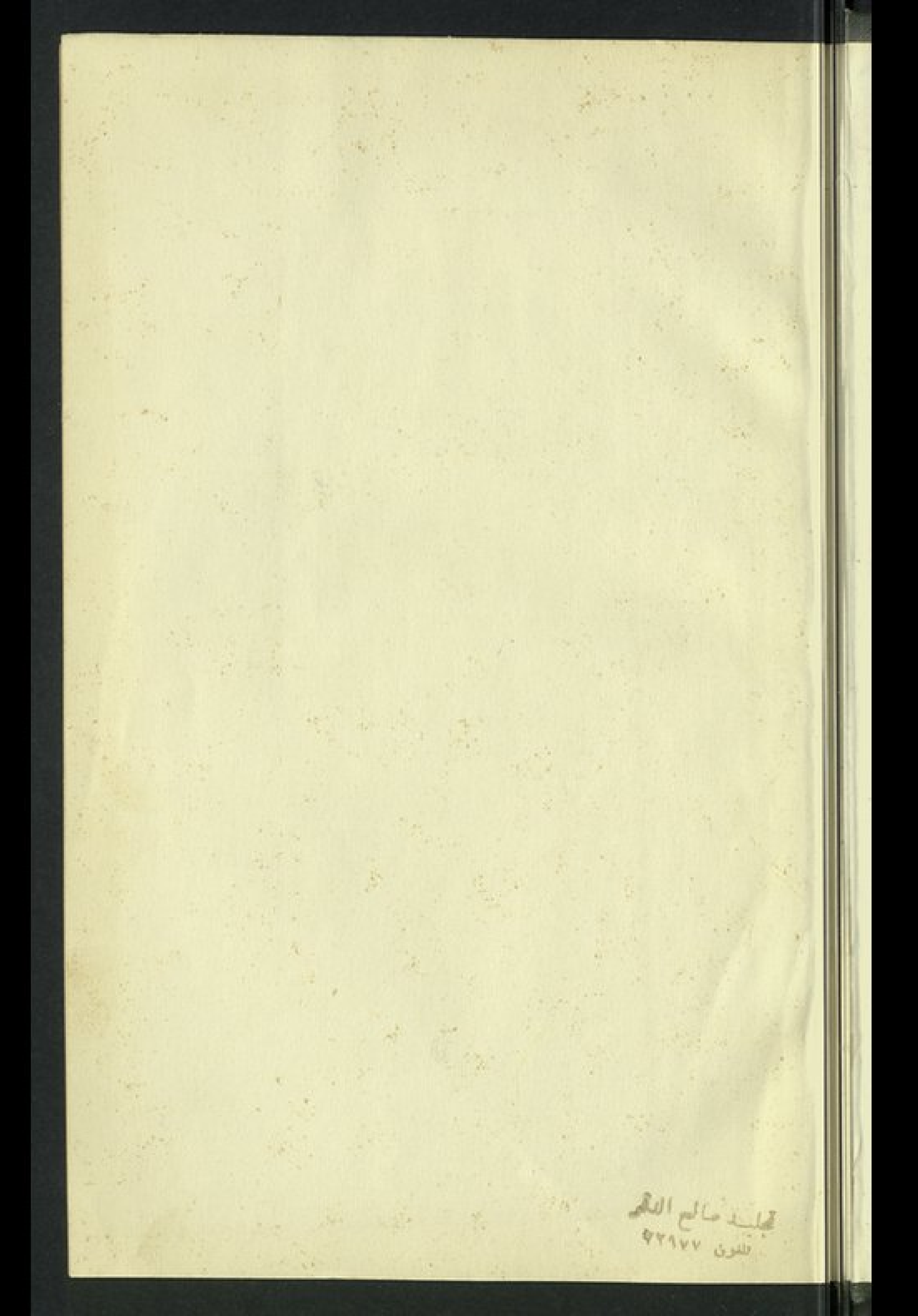
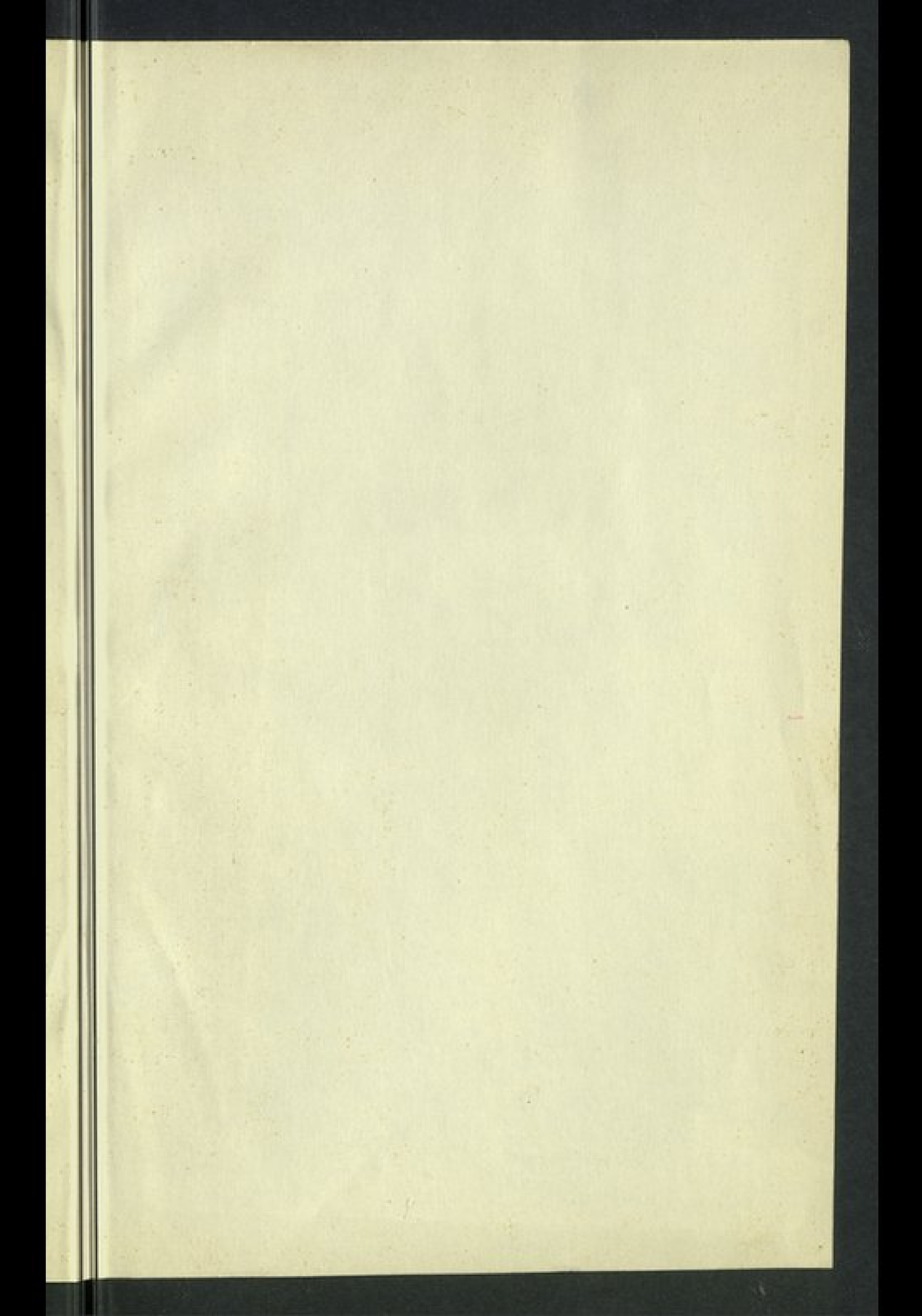
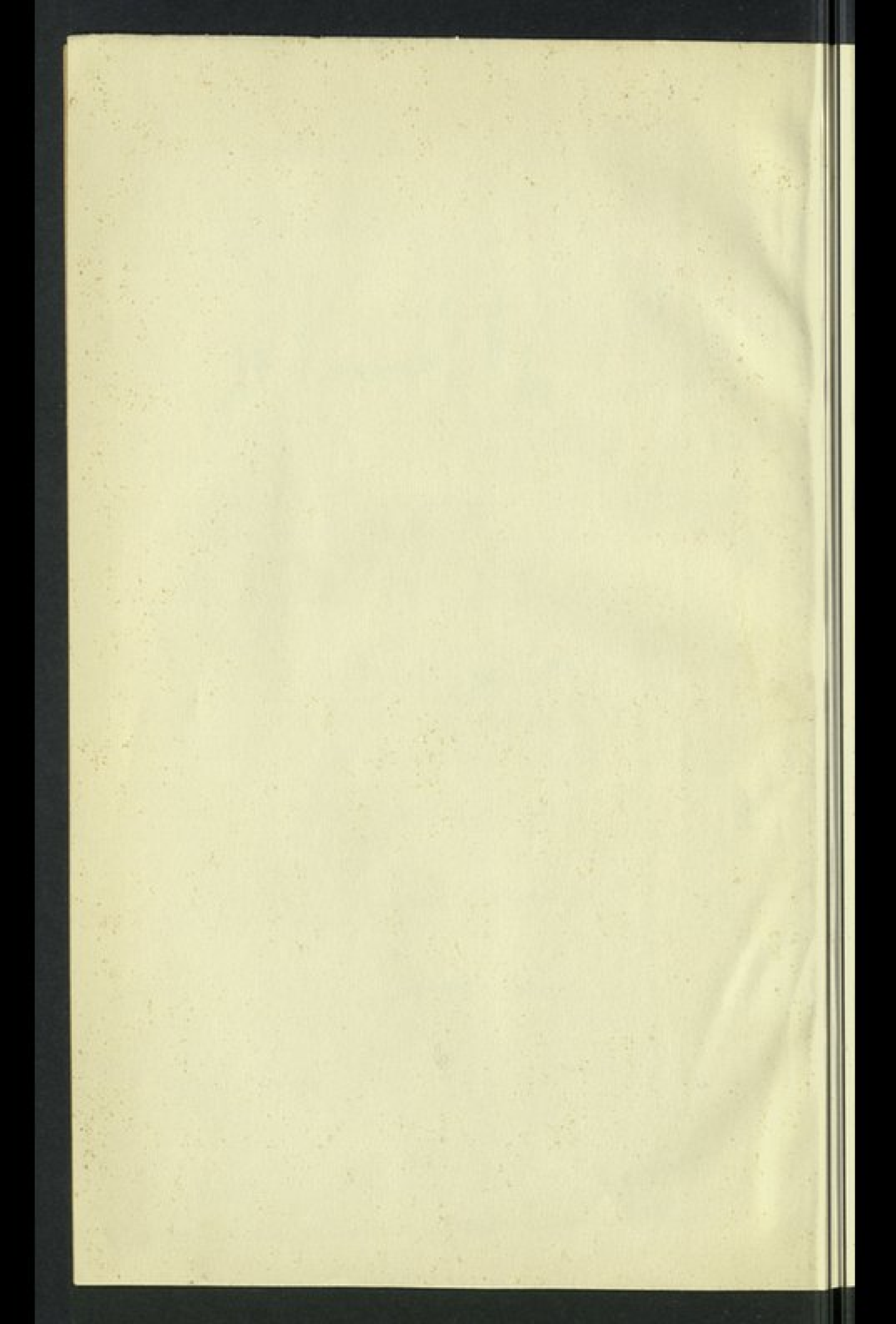
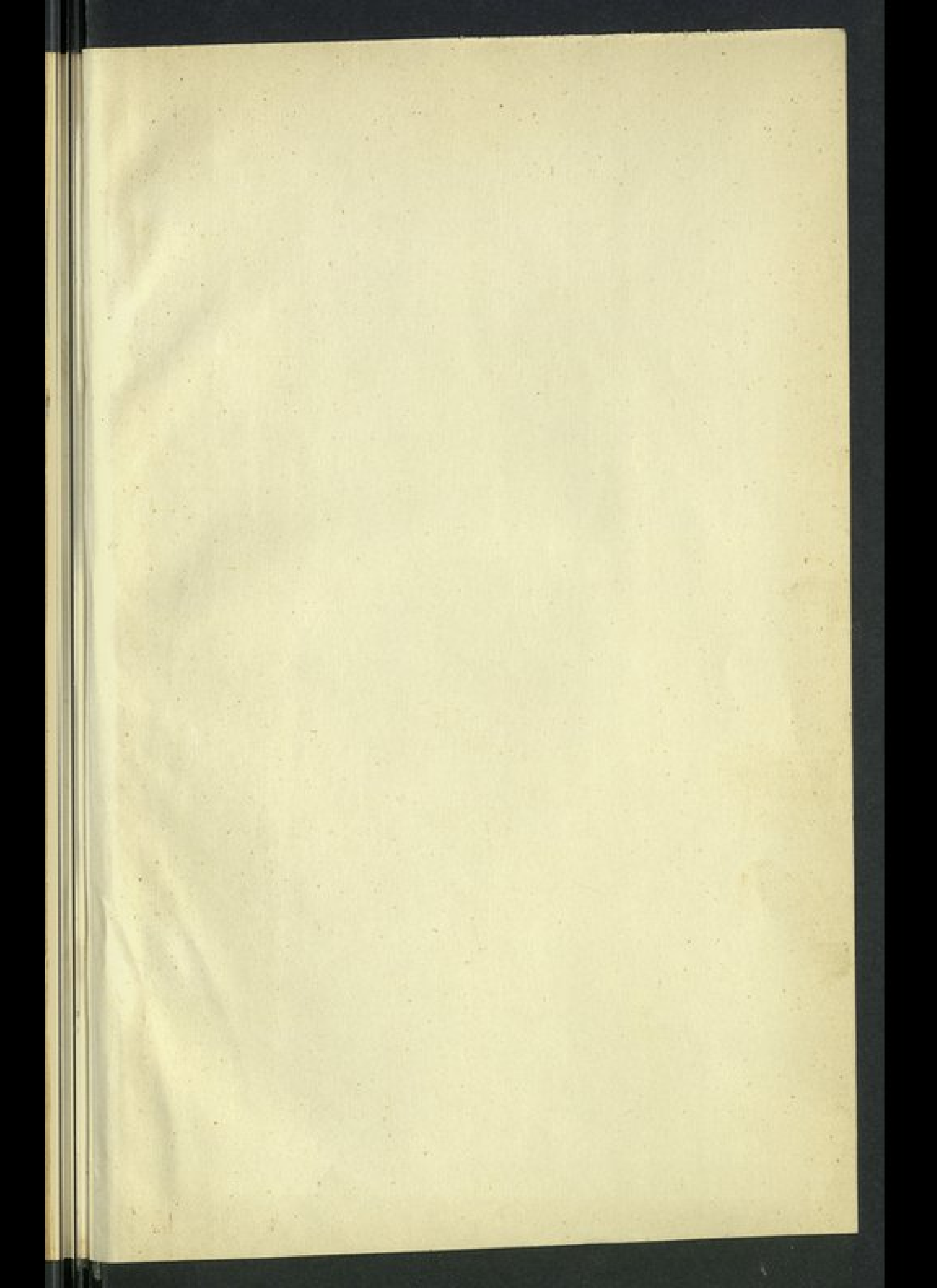



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY









هدية الى مكتبة الجامعة الاميركية العامرة
في بيروت

الموصل ٥/٥/١٩٦٥ المؤلف

ارض السواد

تأليف

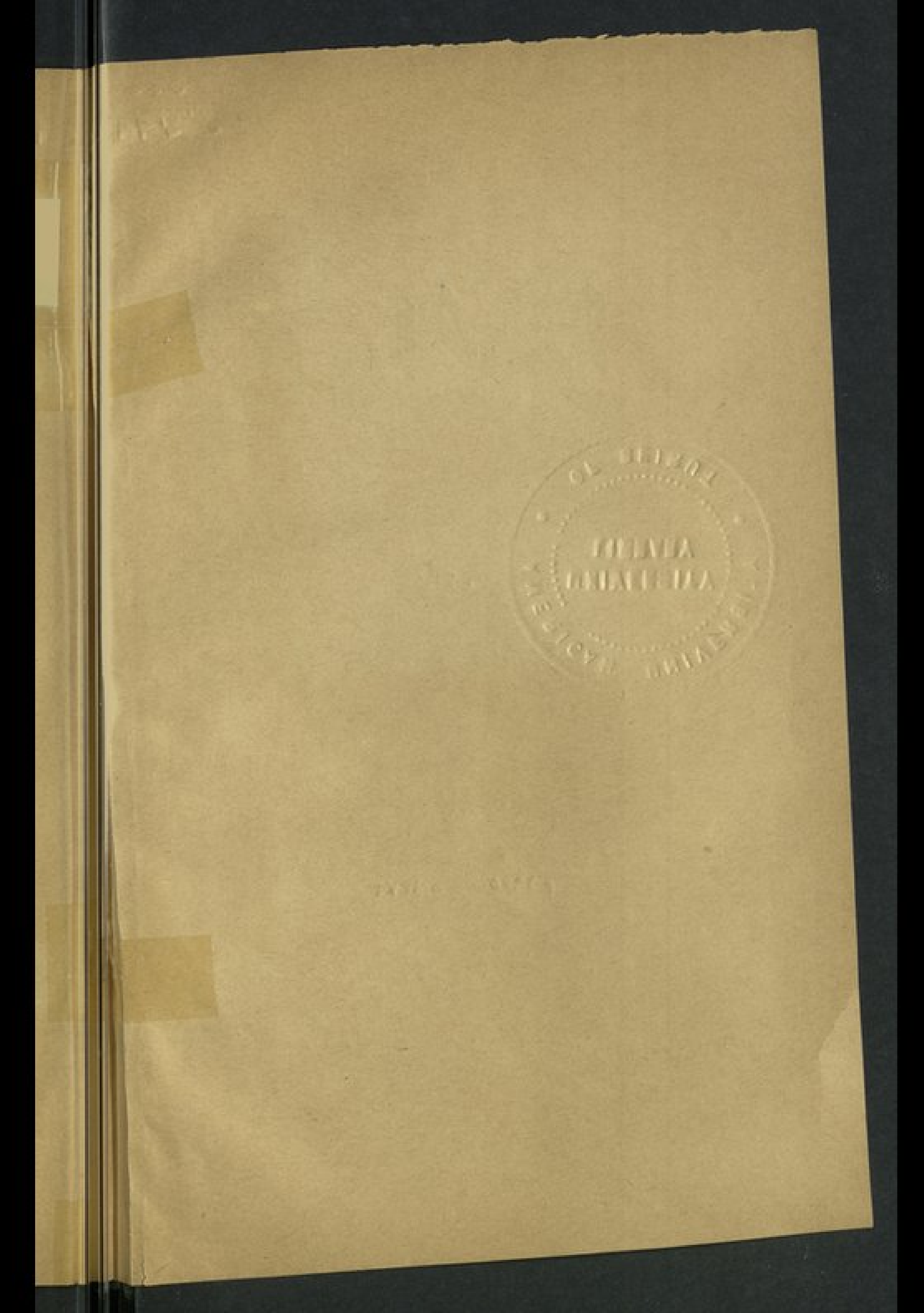
احمد على الصوفى

*** *** ***

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

*** *** ***

طبع في مطبعة الاتحاد الجديد بالموصل تلفون ٩٨٣



تفسير الاصطلاحات المذكورة

في هذا الكتاب

١ـ الفرسخ يساوي ثلاثة أميال ، والميل الواحد يساوي اربعة آلاف ذراع . فالفرسخ الواحد اثنا عشر الف ذراع ، والذراع تساوي ٦٢ سانتمتراً ، فالفرسخ يساوي ٧٤٤٠ متراً ، أي قريباً من سبعة كيلومترات ونصف . وعلى هذا يكون الميل ١٨٦٠ متراً .

٢ـ الميل يساوي ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك ، وهو قريب من الياردة . وكانوا يعتبرونه سابقاً ثلاثة أشبار ، والشبر ستة وثلاثون اصبعاً .

٣ـ الجريب يساوي ستين في ستين ذراعا ، أي ٣٦٠٠ ذراع مربعة ، ويساوي ١٣٨٤ متراً مربعاً .

٤ـ الكر (بالضم) مكيال لأهل العراق يساوي اثنى عشر وسقاً ، وكل وسق ستون صاعا ، والصاع ثمانية أرطال أو أربعة أمنان (تاج العروس) ولكن الصاع قريب من كيلوغرامين . فالوسق يساوي ١٢٠ كيلوغراما ، والكر يساوي ١٤٤٠ كيلوغراما .

٥ـ الاستان أو الكورة يقابلها اللواء ، والرستاق يقابله القضاء ، والطسوج يقابله الناحية . وعلى هذا ينقسم الاستان الى رساتيق ، والرستاق الى طساسيج ، والطسوج يتألف من مجموعة قرى .

٦ـ الكارة مكيال قيل انه يساوي اربعين أُردبا .

٧ـ الغرارة وجمها الغرائر أو الجوالق (كونية) .

٨ـ المكوك وجمها المكاكي ، مكيال يسع صاعا ونصف صاع أو نحو ذلك .

٩ـ الاقجة تساوي ربع مثقال أو خمسة قراريط .

١٠ـ القرش الصاغ يساوي ٤٠ بارا ، والپارا مساوية لثلاث أُقجات .

١١ـ القفيز مكيال كان مستعملا فى العراق .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

مقدمة المؤلف

يسرني ان أقدم الى قراء العربية هذا الكتيب عن أرض السواد ، تلك الارض التى كانت فى العصور الغابرة (جنة عدن) .

ان البحث عن مواقع طساسيج أرض السواد المندرسة يتطلب مواصلة البحث والتنقيب والتحري المتواصل ومناقشة المصادر التاريخية مناقشة دقيقة ومقارنتها مع المواقع المراد اظهار معالمها وتعيين مواضعها بالضبط ، فكانت نتيجة هذه الخطة التي سرنا على هداها العثور على جميع مواقع الطساسيج التي ذكرها قدامة بن جعفر فى كتابه الموسوم بالخراج . ولكي يسهل على القارىء الاحاطة بهذه المواقع ، وضعنا خريطة لارض السواد ثبتنا فيها طساسيج أرض السواد . وأرجو ألا يتبادر الى ذهن القارىء من كلمتي هذه انني جمعت فى هذا الكتيب كل ما يتطلبه البحث فى هذا الموضوع ، وانما حرصت أشد الحرص على ان أقدم للقراء والمتتبعين معلومات صحيحة قدر الامكان، ولست أجزم ان كل ما فيه قد بلغ الغاية من التدقيق بحيث يمتنع فيه الاستدراك والتصويب ، ولكني أرجو من ذوي الاطلاع والاختصاص ان يتداركوا ما قد يلحظونه من وهم وقعت فيه بعد بذل الجهد مع صدق الاجتهاد فى تأليف هذا الكتاب ، وهو يشتمل على سبعة فصول :

الفصل الاول : يبحث عن وصف أرض السواد وما كتب عنه البلدانيون من حيث طبيعته وجودة مناخه وكثرة مياهه ووفرة خيراته وصفات سكانه .

الفصل الثاني : يتناول أرض السواد في عهد الحكم الفارسي وتقسيماته الادارية ومقدار خراجه .

الفصل الثالث : يبحث عن أرض السواد في عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين ، وعن الاسس العامة لكتاب الخراج للامام أبي يوسف الذى شرعه فى عهد خلافة هرون الرشيد ، وعن مقدار الخراج الذى كان يجبي من أرض السواد فى عهد خلافة الرشيد وابنه المأمون .

الفصل الرابع : يبحث عن طساسيج (نواحي) أرض السواد وتثبيت مواضعها على خارطة يجدها القاريء الكريم فى الكتاب مع بيان مقادير الخراج التي كان يدفعها كل طسوج سنويا من حبوب ونقود الى بيت المال فى عهد خلافة المعتصم .

الفصل الخامس : يبحث عن تدني الحالة الاقتصادية والصحية فى أرض السواد وأسباب ذلك (١) ظهور البطائح (٢) كوارث الفيضانات (٣) استيلاء الشعوبيين على مقاليد الحكم وسوء تأثيره على وضع البلاد السياسي والاقتصادي .

الفصل السادس : يتناول البحث عن أخطر الفيضانات التي اجتاحت أرض السواد منذ سنة ٣٦٧ هـ الى يومنا هذا والكوارث التى تعرضت لها البلاد .

الفصل السابع : يبحث عن المجاعات والاوبئة التى اجتاحت العراق منذ سنة ٦٥ هـ حتى يومنا هذا وعن حالة سكان البطائح قديماً وحديثاً .

ولقد اعتمدت فيما كتبت على المصادر المدونة أسماؤها في أول الكتاب ، والله ولي التوفيق .

المؤلف

أحمد علي الصوفي

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م

الفصل الاول

﴿ في وصف أرض السواد ﴾

أطلق العرب مصطلح « أرض السواد » على الأرض التي كانت تمتد من حديثة (١) الموصل شمالا حتى عبادان جنوبا ، ومن العذيب (٢) بالقادسية غربا حتى قصبة حلوان (٣) شرقا . وسبب تسمية هذه الأرض بالسواد لأنها كانت تتاخم جزيرة العرب من الجهة الغربية التي لا زرع فيها ولا نبت . والقادم من الجزيرة الى العراق تظهر له خضرة الزرع والأشجار المزروعة في أرض العراق ..

والعرب كانوا ولا يزالون يسمون الخضرة سواداً ، والسواد خضرة ، وقد ورد في القرآن الكريم في وصف الجنة قوله تعالى : « ومن دونهما جنتان مدهامتان » ، ويقول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب ، وكان أسود البشرة :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من نسل العرب

ولهذا أطلق العرب على سهل العراق اسم أرض السواد ، وكان الفرس يطلقون على أرض السواد « ميان روذان » ومعناها « بين الأنهر » . وكان طول أرض السواد في أيام الحكم الفارسي لهذه الديار نحو مائة وستين فرسخاً

---

(١) بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الاعلى .

(٢) هو ماء بين القادسية والمغيثة ، بينه وبين القادسية اربعة اميال وهو حد السواد من الناحية الغربية .

(٣) كتاب الاموال لابي عبيد القاسم بن سلام ص ٧٠ ومعجم البلدان ج ٥ ص ١٥٩ .

بينما كان طول العراق يقدر بنحو مائة وخمسة وعشرين فرسخاً ، وكانوا يعتبرون حدود العراق الشمالية تبتدي، من الموقع المسمى « بالعلث (١) » في شرقي دجلة ، وهي قرية تقابل موقع « حربي » في غرب دجلة ويمتد جنوبا الى آخر أعمال البصرة من جزيرة عبادان .

ويقول قدامة بن جعفر ان طول الفرسخ بذراع المسافة تسعة آلاف ذراع والفرسخ المربع من الأرض يساوي اثنين وعشرين الفاً وخمسمائة جريب . وكانت مساحة أرض السواد بالجريب تقدر على وجه التقريب - بعد ان يطرح منها آكامها وآجامها وسباخها ومجاري أنهارها ومواضع مدنها وقراها ومدى ما بين طرقها (وهذه بمثابة الثلث) وما بقى كان يقدر بمائة الف الف جريب وخمسين الف الف . وكان النصف من هذه المساحة مزروعابالأشجار المثمرة والكروم والنخيل والرمان، وما بقى منها كان يزرع فيه الحبوب والرز والقطن والسمسم . وكان كل جريب يدفع خراجا درهمين ، ويبلغ المجموع مائة الف الف وخمسين الف الف درهم مثاقيل ، كانت تجبى في السنة من أصحاب الاراضي المزروعة . على ان هـــذين الدرهمين هما أقل من عشر محصول الجريب .

ولقد جاء عن وصف سواد العراق بانه منار الشرق وسرة الارض وقلبها، واليه تحدرت المياه ، وفيه اتصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ، فصفت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدت خواطرهم ، واتصلت مسراتهم ، فظهر منهم الدهاء ، وقويت عقـــولهم ، وثبتت بصـائرهم . وقلب الارض (العراق) وهو المجتبى من قديم الزمان ، وهو مفتاح الشرق ، ومسلك النور،

(١) وهي قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء وهي أول العراق في شرقي دجلة .

ومسرح العينين ، ومـدنه المدائن وما والاها ، ولأهله أعدل الالوان وأنقى الروائح وأفضل الامزجة وأطوع القرائح ، وفيهم جوامع الفضائل وفوائد المبرات ..

وفضائله كثيرة لصفاء جوهره وطيب نسيمه واعتدال تربته واغداق الماء عليه ورفاهية العيش فيه (١) .

ويقول المسعودي : « وأوسط الاقاليم الذى ولدنا به (العراق) ، وهـو اقليم بابل . ولقد كان هذا الاقليم عند ملوك الفرس جليلا وقـدره عظيما ، وكانت عنايتهم اليه مصروفة لما خص به هذا الاقليم من كثرة مرافقه واعتدال أرضه وغضارة عيشه ومادة الرافدين اليه وهى دجلة والفرات وعموم الأمن فيه وبعد الخوف عنه وتوسطه الاقاليم السبعة . كانت الاوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد لان أرضه من اقليم بابل الذى تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الامور كما يقع ذلك من القلب وبذلك اعتدلت ألوان أهله وأجسامهم. فسلموا من شقرة الروم والصقالبة وسواد الحبشة وغلظ البربر ومن جفا من الامم . واجتمعت فيهم محاسن جميع الاقطار وكما اعتدلوا في الجبلة ، كذلك لطفوا في الفطنة والتمسك بمحاسن الامـور، وأشرف هذا الاقليم مدينـة السلام (٢) » .

ويقول ياقوت : « كان الفرس يعتبرون أرض السواد بمثابة القلب من ممالكهم الاخرى التى كانوا يعبرون عنها بالبدن . وكانوا يطلقون على السواد (دلي ايرانشهر) أي القلب . واشتهر سكان السواد بصحـة الفكر والروية وعرفوا بدقائق العلوم ولطائف الادب وصحة الاحكام واكتشاف العـلوم

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٧٢ . (٢) المرجع السالف ج ١ ص ٢٧٣ .

والفنون وهم الذين وضعوا أسس الحضارة والمدنية القديمة. ومن أرض السواد انبثقت الحضارة وشعت على العالم . ويعزون السبب في ذلك الى طبيعة أرض السواد المنبسطة التي لا عوائق فيها ولا شواهق تشينها ولا مفارز موحشة ولا براري منقطعة تعيق تواصل العمران فيها . والأنهار المطردة من رساتيقها وبين قراها وتكاثف عمارتها وكثرة أنواع غلاتها وثمارها وتكاثف أشجارها ووفرة الصيد في ظلال نخيلها من طائر بجناح وماش على ظلف وسابح في بحر قد أمنت ما تخافه البلدان من غارات الاعداء وبوائق المخالفين مع ما خصبت به من الرافدين (دجلة والفرات) اذ قد اكتنفاها فلا ينقطعان عنها شتاء ولا صيفاً على قلة منافعها في غيرها فانه لا ينتفع منها في غير أرض السواد بكثرة حتى يدخلاها فتسيح مياهها في جنباتها وتنبطح في رساتيقها فيأخذ أهل السواد صفوه هنيئاً ويرسلون كدره وآجنه الى البحر ولا ينتفع بها في غير السواد إلا بالداولي والدواليب بمشقة وعناء (١) » .

لا شك ان القارىء سيدرك من هذا الوصف الذي كتبه البلدانيون عن أرض السواد أهميتها العظيمة ووفرة خيراتها والرخاء الذي كان يتمتع به سكانها في العصور الغابرة ، فالجدير بها إذن ان يطلق عليها اسم (جنة عدن).

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ١٥٩ .

الفصل الثاني

(أرض السواد فى عهد الفرس)

استولى الفرس على العراق فى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك على أثر استيلاء كورش الكبير على مملكة بابل الكلدانية في عهد ملكها نابونيد سنة ٥٣٩ ق. م. ، فاحتفظوا بطريقة الري الكلدانية البابلية وأضافوا كثيراً من التحسينات عليها حتى أصبحت بلاد بابل (أرض السواد) أغنى مقاطعات العالم . ويقول السر ويليام ويلكوكس « ولعل أعظم رخاء شاهدته دلتا العراق انما كان فى ايام ملوك الفرس الساسانيين في أول العهد المسيحي ، حيث كان جدول النهروان الواسع يروي كل المنطقة الواقعة شرقي دجلة ، كما كان نهر الدجيل يروي كل المنطقة الواقعة غربي النهر . اما الفرات فكانت تتفرع منه الجداول الاربعة التى ذكرها كزينفون كما كانت هناك جداول اخرى تمتد مياهها من الفرع البابلي لقربها من مدينة بابل فتروي المنطقة التى تمتد الى حد مجرى دجلة القديم أو فرع (الحي) الحالي . وقد شرح لنا « اميان مرقلان » الذى زار العراق فى القرن الخامس المسيحي حالة هذه المملكة ، فذكر انها كانت عبارة عن غابة خضراء من أقصاها الى أقصاها (١) .

(التقسيمات الادارية لأرض السواد فى عهد الحكم الفارسي)

كانت أرض السواد تقسم على عهد الحكم الفارسي الى قسمين :

الأول : سواد البصرة ويشتمل على مقاطعتين «١» مقاطعة وسنمېسان

---

(١) تطور الري في العراق ص ٥١ .

«٢» مقاطعة الاهواز وفارس .

الثاني : سواد الكوفة ويشتمل على «١» مقاطعة كسكر (١) «٢» مقاطعة الزاب «٣» مقاطعة حلوان «٤» مقاطعة القادسية . وقد قسم الفرس أرض السواد من الناحية الادارية الى ستين طسوجا (ناحية) . وقسموها من جهة جباية الضرائب الى اثني عشر أستانا (اجارة) .

﴿ خراج السواد في العهد الفارسي ﴾

تحدثنا المصادر التاريخية ان غلات السواد كانت تجرى على المقاسمة في عهد حكم الفرس ، واستمر نظام المقاسمة متبعاً فى أرض السواد حتى تبوأ عرش فارس الملك قباذ بن فيروز الساساني ، فانه أبطل نظام المقاسمة وأمر بمسح أرض السواد وجعل على أهلها الخراج . ويعزو المؤرخون سبب ذلك الى حكاية ملخصها ان الملك قباذ خرج يوما متصيداً في أرض السواد فانفرد عن حاشيته بصيد طرده فتوغل ذلك الصيد بين الأشجار وغاب عن بصر الملك ، فصعد على رابية يتشوف منها صيده، فاذا تحت الرابية قرية كبيرة تكتنفها الأشجار المثمرة وأبصر الملك امرأة من سكان تلك القرية واقفة على تنور تخبز ومعها صبي لها . وكانت هذه المرأة كلما غفلت عن صبيها مضى هذا الصبي الى شجرة رمان مثمرة ليتناول من رمانها ، فتعدو المرأة خلفه وتمنعه من قطف الرمانة ولا تمكنه من أخذ شيء من الشجرة . فلم تزل المرأة على هذه الحال حتى فرغت من خبزها والملك يشاهد ذلك كله ، وكانت حاشية الملك قد لحقت به فقص عليهم ما شاهده من المرأة والصبي، وطلب الملك ممن

(١) كانت مقاطعة كسكر تحتوي على ما يسمى الان بالوية الكوت والعمارة والناصرية والبصرة .

هم في معينه ان يسأل المرأة عن السبب الذى حملها على منع ابنها من قطف الرمانة ، فكان جوابها ان للملك فى الشجرة حصة ولم يأتنا الجابي المأذون لقبضها حتى الآن وهى أمانة فى أعناقنا ولا يجوز ان نخون تلك الأمانة ولا ان نتناول مما بايدينا شيئاً حتى يستوفي الملك حقه .

فلما سمع قباذ بذلك أدركته الرقة بها وبرعيته وقال لوزرائه « ان الرعية منا لفي بلية وشدة وسوء حال بما فى أيديهم من غلاتهم لأنهم ممنوعون من الانتفاع بشيء من ثمرة جهودهم حتى يرد عليهم من ياخذ حقنا منهم . فالعدل والانصاف يحتمان علينا ان نوفر لرعايانا الطعام والكساء وان نسعى الى إنماء ما بايديهم من مال لأن غناهم غنانا وفقرهم فقرنا ، فهل عند أحدكم طريقة جديدة تفرج عن كربة الرعية وتكفل حقنا وحقهم ؟ .

فتقدم الوزير الأول باقتراح له يرمي الى مسح أرض السواد والزام كل جريب من كل صنف من الأراضي المزروعة بقدر ما يخص الملك من الغلة فيؤدي ذلك الى محافظة حقوق الملك . ويطلق للرعية حرية التصرف فى غلاتهم حسبما يشاؤون . فنال الاقتراح رضا الملك واستحسانه وأمر بمسح أرض السواد وإلزام الرعية بالخراج على ان تقوم خزانة الدولة بالانفاق على العمارة والمؤونة وعلى كرى الأنهار وسقاية الماء واصلاح القنوات والجداول وحفر ما يلزم منها ، وقد قيل ان ضريبة الأرض وحدها بلغت في زمن حكم قباذ بن فيروز مائة وخمسين مليون درهم (١) .

واعتبر ملوك الساسانيين جميع الأراضي ملكا للدولة أي أنها تعود للملك الذى اكتسبها بحق الفتح ، ولكنه وزع هذه الأراضي قطعاً على الزراع

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ١٥٩–١٦٢ .

ومنحهم حق اللزمة وحق الاستغلال والتصرف كما شاؤا ما داموا يدفعـون ضريبة الأرض (١) وقد وضعت أنظمة خاصة لتأمين توزيع المياه على الزراع بصورة عادلة (٢) .

وعندما تولى كسرى انوشروان عرش فارس ، أمر بوضـع قانون جديد للخراج يطبق فى أرض السواد من العراق ، وهذا القانون الجـديد كان قد ألزم كل جريب منها تزرع فيه الحنطـة أو الشعير درهما . وأخذوا من الرز نصفاً وثلثاً ومن كل اربع نخلات فارسية درهما وكل ست نخـلات دقل درهما وكل ست أصول زيتون درهما والكرم ثمانية دراهم والرطب سبعـة دراهم . فهذه سبعة أنواع من الغلات وترك ما عداها مما تقضم الناس والبهائم (٣) ويأخذ الخراج السنوي فى ثلاثة أنجم وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب. وكتب كسرى الى القضاء في البلاد نسخة بالخراج ليمتنـع العمال من الزيادة عليه وأمر ان يوضع عمن أصابت غلته جائحة بقدر جائحته وألزموا النـاس الجزية ما خلا العظماء وأهل البيوتات والجند والموابذة والكتاب ومن في خدمة الملك ألزموا كل انسان على قدره اثني عشر درهما وثمانية دراهم وستة دراهم واربعة دراهم (٤) .

هذا وقد بلغت ضريبة الخراج لأرض السواد فى زمن كسرى انوشروان مائتين وسبعة وثمانين مليون درهم (٥) .



---

(١) تطور الري في العراق ص ٥٢ .
(٢) المرجع السالف .
(٣) مروج الذهب ج ١ ص ١٦٦ .
(٤) الكامل ج ١ ص ٢٠٣ .
(٥) تطور الري في العراق ص ٥٢ .

الفصل الثالث

﴿ أرض السواد فى العهد الاسلامي ﴾

وما صنع عمر بارض السواد

تحدثنا المصادر التاريخية : ان الجيوش الاسلاميـة بعد ان طردت الفرس وأقصتهم عن العراق فى عهد خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، أراد المسلمون ان يعتبروا أرض السواد من نوع الأراضي التي أفاء الله على المسلمين بها لأنه ليس لأهل السواد عهد إلا لأهل الحيرة ، وأليس ، وبانقيا . فلذلك هي فيء للمسلمين عامة وقالوا لعمر أقسمه أي « السواد » بيننا فانا افتتحناه عنوة فأبى عمر وقال : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ وأخاف إن قسمته تفاسدوا بينكم في المياه فأقر أهل السواد في أراضيهم وضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أراضيهم الطسق (١) ولم يقسمها بين المسلمين (٢) .

وكتب عمر الى سعد بن أبي وقاص يوم افتتح العراق « اما بعد فقد بلغني كتابك : ان الناس قد سألوا ان تقسم بينهم غنائمهم وما أفاءه الله عليهم فانظر ما أجلبوا به عليك فى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين فانا لو قسمناها بين من حضر من المسلمين لم يكن لمن بعدهم شيء » .

وكان عمر أراد ان يقسم السواد بين المسلمين فأمر ان يحصوا، فوجد الرجل يصيبه ثلاثة من الفلاحين فشاور في ذلك فقال له علي بن أبي طالب :

---

(١) الطسق مكيال . (٢) كتاب الاموال لابي عبيد ص ٥٧ .

دعهم يكونوا مادة للمسلمين فتركهم . ويظهر ان الذى جعل عمر أن يبقي أرض السواد في أيدي أهلهـا انه لما قدم الجابيـة وأراد قسم الأراضي بين المسلمين قال له معاذ بن جبل « والله إذن ليكونن ما تكره ، انك ان قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد أو المرأة ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الاسلام مسداً وهم لا يجدون شيئاً فانظر أمراً يسع أولهـم وآخرهم » فصار عمر الى قول معـاذ (١) واتبعه .

وتعليقاً على هذا أقول : ان عمر بن الخطاب عمل بالتشريع الذى اقترحـه عليه معاذ عندما أراد تقسيم أرض الجابية بعدان استولى عليها المسلمون بابقاء الاراضي المفتوحة بايدي مالكيها . ان اقتراح معاذ هو سياسة الامر الواقـع الذى كان ينطوي على بعد نظر وتقدير للنتائج التي تعرض للدولة من جراء تقسيم الاراضي المفتوحة عنوة باعتبارها فيئاً للفاتحين ، منها ظهور اقطاعيـات كبيرة تنحصر فوائدها باشخاص محدودين يعيشون على أتعاب غيرهم من العمال المزارعين في تلك الاقطاعات وهذا ما يخالف تعاليم الاسلام .

ومن الجهة الثانية فلو طبق مبدأ تقسيم الاراضي بين الفاتحـين لأدى ذلك الى ابقاء مساحات كبـيرة من الاراضي بوراً غـير مستثمرة لان مالكيها سيعجزون اذ ذاك عن استثمارها فـلا يستفيد منها بيت المال ولا ينتفع منهـا السكان كما هى الحالة عندنا الآن .

ان مبدأ نزع ملكية الارض من مالكها كانت تزيد فى مقاومة الشعوب التي لم يتم فتح بلادها من قبل الجيوش العربية الاسلامية وتحفز تلك الشعوب على

(١) كتاب الاموال لابي عبيد ص ٥٩ .

الدفاع عن أراضيها بكل ما لديها من قوة ، لان استيلاء المسلمين على بلادهم سيؤدي حتما الى نزع ما يملكون من الاراضي وحرمانهم منها . والاسلام جاء منقذاً لا مستعبداً ، فمبدأ بقاء الارض المفتوحة بايدي أصحابها كان من العوامل التي سهلت على الجيوش العربية فتوحاتها العظيمة .

ان قول معاذ لعمر « ... ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الاسلام مسداً وهم لا يجدون شيئاً فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم » كان يراد به تهيئة أوطان يشتغل فيها العاطلون من أفراد الامة ولمكافحة البطالة وايجاد موارد الرزق للعاطلين ، وهذا هو مبدأ الضمان الاجتماعي الذى دعت اليه تعاليم الاسلام في جوهرها . ان مبدأ هذا شأنه يكفل للفرد العيش في سعة ويؤمن للسكان أجمعين ضماناً اجتماعياً قويا ضد العاهة ، والوفاة ، والعجز ، والكبر ، ويقضي على تركز الثروات بين أيدي فئة من الناس معدودة في المجتمع . ان خطورة هذا المبدأ تتجلى في مقارنته بما كان يسود المجتمعات المفتوحة من قبل الاسلام آنذاك ، فقد كان أمراء الاقطاع الفرس والرومان قد استقل كل منهم بموارده الاقتصادية وانتاجه الزراعي وسخر عبيد أرضه فى العمل له ولم يكن يدين إلا بطاعة اسمية تقليدية للملك أو للامبراطور ، ولهذا روى لنا التاريخ حوادث طريفة عن كيفية استقبال الشعوب السامية في سوريا والعراق وفارس وآسيا الصغرى جيوش الاسلام المظفرة كمحررين لا كفاتحين تخلصاً من العبودية الاقتصادية التي كانوا يلقونها من أسيادهم الطغاة ولم تمض حقبة من الزمن حتى فتح العرب المعمورة باجمعها وأسسوا فى البلاد المفتوحة أنظمة مستمدة من تعاليم الدين الحنيف تكفل لجميع الشعوب على اختلاف ألوانها وعقائدها الحرية والمساواة وحرية التملك وحرية العبادة

ولهذا قبل الفاروق رضي الله عنه أقـوال معاذ، فأمر بمسح أرض السـواد باعتبارها ملكا للدولة ووضـع الخراج والجزية على سكانها وأقر حق اللزمة لسكان السواد على ما كانوا يملكون من الاراضي قبل الاسلام .

﴿ عمر يقر أرض السواد في أيدي أهلها ﴾

ويضع عليها الطسق

تذكر المصادر التاريخية ان الخليفة عمر بن الخطاب، بعث عمار بن ياسر الى أهل الكوفة على صلاتهم وجيوشهم ، وعبد الله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم ، وعثمان بن حنيف على مساحة الاراضي ، ثم فرض لهم فى كل يوم شاة بينهم ، فمسح عثمان بن حنيف الارض وظهر بنتيجـة المسح الذى قام به عثمان بن حنيف ان مساحة أرض السواد الخاضعة للخراج ٣٦ مليون جريب فجعل على جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب النخل خمسـة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر اربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين ، وجعل على أهل الذمة فى أموالهم التى يختلفون بها كل عشرين درهما درهما وجعل على رؤوسهم واستثنى من ذلك (الصبيان والنساء) اربعة وعشرين درهما كل سنة ، ثم كتب بذلك الى عمر فأجازه ورضـى به ، وقيل لعمر : تجار الحرب كم نأخذ منهم اذا قدموا علينا ؟ قال : كم يأخذون منكم اذا قدمتم عليهم ؟ قالوا العشر ، قال : خذوا منهم العشر .

وذكر الشعبي : ان عمر بعث ابن حنيف الى السواد فطرز الخراج فوضع على جريب الشعير درهمين وعلى جريب الحنطة اربعـة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب النخل ثمانية وعلى جريب الكرم عشرة وعلى

جريب الزيتون اثنى عشر ، ووضع على الرجل الدرهم في الشهر والدرهمين في الشهر .

ويقول محمد بن عبد الله الثقفي : وضع عمر بن الخطاب على أهل السواد على كل جريب عامر أو غامر درهما وقفيزاً (١) وعلى جريب الرطبة خمسة دراهم وخمسة أقفزة وعلى جريب الشجرة عشرة دراهم وعشرة أقفزة وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعشرة أقفزة. قال ولم يذكر النخل. وعلى رؤوس الرجال ثمانية واربعين واربعة وعشرين واثنى عشر درهما (٢). ويقال ان جباية أرض السواد كانت قد بلغت قبل وفاة عمر بعام نحو مائة مليون درهم. وقال ابن خرداذبة : ان عمر جبى أرض السواد بمقدار مئة وثمانية وعشرين الف الف درهم فيكون جباية الجريب الواحد ٣٫٥٥ درهما وهذا هو الأصح والجريب ستون في ستين ذراع أي ٣٦٠٠ ذراع مربعة ، ولما كانت الذراع مساوية اثنين وستين سنتمتراً فتعتبر مساحة الجريب الواحد مساوية ١٣٨٤ متراً مربعاً .

وتقول مصادر تاريخية أخرى ما ملخصه : وبعد فتح جلولاء وطرد الفرس من أراضي السواد منع الخليفة عمر بن الخطاب من قسمة أرض السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض وفيض المياه وما كان لبيوت النار ولسكك البر وما كان لكسرى ومن جامعه ، وما كان لمن قتل، والارجاء وخاف ايضاً (أي عمر) الفتنة بين المسلمين، فلم يقسمه (أي السواد) ومنـع من بيعه لأنه لم يقسم وأقروها حبيساً يولونها من أجمعوا عليه بالرضا وكانوا لا يجمعون إلا على الأمراء . فلا يحل بيع شيء من أرض السواد ما بين حلوان والقادسية،

(١) القفيز مكيالا . (٢) كتاب الاموال لابي عبيد ص ٦٩ .

واشترى جرير أرضاً على شاطىء الفرات فرد عمر ذلك الشراء وكرهه (١).

﴿ أرض السواد في العهد الأموي ﴾

عندما استولى الأمويون على العراق قام الحجاج أمير العراق باعمار نحو خمسين الف ايكر من الأهوار بين القرنة والبصرة وحولها الى جنة، فكانت الأرض أشبه ببساط أخضر من البرسيم الحجازي تبرز منها أشجار النخيل الباسقة فتظلل الحدائق وتقيها حرارة الصيف اللافح وبرد الشتاء القارس. بينما كانت نفائس الكروم متواصلة تتدلى منها عناقيد العنب الأرجواني (٢).

وقد أبقى الامويون قانون الخراج نافذ المفعول في أرض السواد، ففي عهد ولاية زياد بن أبي سفيان على العراق بلغ ما جباه من أرض السواد مائة وخمسة وعشرين مليون درهم في السنة. وفي عهد ولاية ابنه عبد الله بلغ ما جباه اكثر من جباية أبيه بعشرة ملايين درهم. وبعد ولاية الحجاج بن يوسف أمارة العراق بلغ ما جباه من خراج السواد مائة وثمانية وثمانين مليون درهم. وبعد ولاية الحجاج كثرت الاضطرابات الداخلية والحروب الاهلية في العراق حيناً مع الخوارج وحيناً مع طالبي الخلافة من أبناء علي ولم يخل عصر خليفة أموي من حروب داخلية إلا عصر الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز.

وعندما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر بتسليف الفلاحين فى أرض السواد مبلغاً قدره مليونا درهم بقصد إنفاقه على مشاريع الري والزراعة فى تلك البقاع التي أصابها الخراب والدمار من جراء الحروب الداخلية والفتن.

(١) الكامل ج ٢ ص ٢٥٧. (٢) تطور الري في العراق ص ٥٦.

وأثر عن هذا الخليفة قوله في هذا الصدد « ها أنا قد رجع إلي العراق على خرابه فجبيته مائة الف الف واربعة وعشرين الف الف درهم بالعدل والانصاف وإن عشت لازيدن على جباية عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وكان العراق يدار على أصول العهد الأموي بشكل أمارة يتولى شؤون ادارتها أمير يعينه الخليفة . وكانت أمارة العراق هذه مؤلفة من أيالة الكوفة وأيالة البصرة وأيالة خراسان . وكان الامير يقيم فى الكوفة بعض السنة ، وفى البصرة بعضها ، وفى بعض الاحيان كانت أيالة خراسان تفصل عن أمارة العراق . وكان للعراق ديوان خراج مقره الكوفة ، ثم انتقل بعد ذلك الى العاصمة الجديدة « واسط » على عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي .

﴿ أرض السواد في العهد العباسي ﴾

قامت الدولة العباسية في العراق واستولت على جميع البلدان التي تم فتحها فى عهد الخلفاء الراشدين والدولة الاموية في الشام باستثناء بلاد الاندلس التي استقل بها أمراء بني أمية الهاربون من اضطهاد بني العباس . وقد نالت أراضي السواد من العناية في عهد العباسيين حظاً وافراً حيث كانت الحكومة العليا تراقب كافة الامور الخاصة بالزراعة مراقبة دقيقة، وتشرف كذلك على شق الجداول وصيانتها واصلاحها وعلى جميع أعمال الري التي تتوقف عليها الحاصلات الزراعية ، وكان هناك ديوان خاص يسمى « ديوان الاقرحة » تنحصر مهمته فى الاشراف على أعمال الري والزرع . وقد كتب أبو يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية في عهد الرشيد الى هذا الخليفة كتابا بين فيه ان من واجب الحكومة شق الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة لتحسين الزراعة

وتنظيف الترع الموجودة وترميمها والتعاون مع الشعب فى تحمل نفقات الصيانة وتوزيع المياه . ثم انه أوصى بتشكيل شرطة نهرية ذات كفاية ممتازة والعمل على ازالة العقبات التي تعرقل الملاحة في الأنهر الكبيرة وبالاخص دجلة والفرات (١) .

ان خلفاء بني العباس أبقوا قانون الخراج معمولا به فى أرض السواد بعد ان أدخلوا عليه التوسيعات وأضافوا اليه بعض مواد جديدة وفق أحكام الشريعة الاسلامية الغراء .

﴿ قانون الخراج فى عهد خلافة هارون الرشيد ﴾

هو خامس خلفاء بني العباس ، كان يحب ان يسود العدل بين رعيته فى الوقت الذى توفرت لديه الرغبة الاكيدة فى تنظيم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال وان يكون ذلك على النمط المشروع الذى استنه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم ، ويكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من رعاية مصالح الامة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها . فانتدب لهذا العمل الجليل قاضيه الاكبر « أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري » صاحب الامام « أبي حنيفة النعمان بن ثابت » وتلميذه ، فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام ووضع كتاب الخراج الذى يعد أعظم نظام تشريعي عمل فى العهد العباسي .

---

(١) تطور الري في العراق ص ٥٨ .

﴿ الأسس العامة لكتاب الخراج ﴾

اعتبر أبو يوسف موارد بيت المال ثلاثا (١) خمس الغنائم (٢) الخراج (٣) الصدقات . ولما كان موضوعنا فى خراج السواد ، فسنقتصر الكلام بشكل موجز على أهم المواد المتعلقة بخراج الأرض التي شرعها أبو يوسف :

لم ير أبو يوسف ما قرره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمر الخراج أمراً لازما لمن يأتي بعده ، بل يجوز للخلفاء اذا رأوا مصلحة المزارعين فى المقاسمة ان يعدلوا اليها، كما انه رأى ان تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج .

وتطرق الامام أبو يوسف فى كتابه عن وظيفة الطعام فيقول : وظيفة الطعام : فان كان رخيصاً فاحشاً لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور . وان كان غلاء فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك الرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم .

ويمضي الامام أبو يوسف قائلا : ان ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوي على الضعيف . ثم قال « ولم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ، ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة ، فيها للسلطان رضا ولاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل ».
وقد رأى الامام ان يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعا

على خمسين للسيح منه . واما الدوالي فعلى خمس ونصف خمس ، واما النخل والرطاب والكروم والبساتين فعلى الثلث ، واما غلال الصيف فعلى الربع . ولا يؤخذ بالخرص في شيء من ذلك ولا يحزر (١) عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة ولا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر ثم يؤخذ منهم مايلزم من ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم ، ويجب اعفاء ما دون خمسة (اوسق) من الخراج وهي تساوي ٣٠٠ صاع أو ١٦٠٠ رطل .

ثم طلب أبو يوسف بان يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط حيث يقول ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس . فاذا أمكن الدياس رفع الى البيادر ولا يترك بعد امكانه للدياس يوما واحداً لئلا تذهب به الاكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج . واذا رفع الطعام الى البيادر وصير أكداساً أخذ في دياسه ولا يحبس الطعام اذا صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة وهو لا يداس فان في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما فى البيادر ولا يحزر عليهم ضرراً ثم يؤخذون بنقائص الحزر فان هذا هلاك لاهل الخراج وخراب للبلاد ، واذا ديس الطعام وذرى قاسمهم .

---

(١) كانت الطريقة المتبعة في حزر البيادر وتخمينها من قبل العمال هي اذا كان البيدر مستديراً يوجد حجمه بضرب قطرين فيه بمحيطه والحاصل يؤخذ منه واحد من ستمائة اذا كان البيدر حنطة او يؤخذ منه واحد من خمسمائة اذا كان الحاصل شعيراً ، اما اذا كان البيدر على هيئة متوازي المستطيلات يوجد حجمه بضرب بعدي قاعدته فى ارتفاعه ويؤخذ واحد من اربعمائة او واحد من ثلاثمائة على حسب كون البيدر حنطة اوشعيراً (راجع ج ١ و ٢ مجلد ٩ من مجلة الزراعة العراقية ص ١٠٣ و ١٠٤ لسنة ١٩٥٤) .

ويمضي أبو يوسف فى حديثه قائلا « ولا يؤخذ (يكلف) أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام للسلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجـــور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لاحد عليهم فى شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة ســوى الذي وصفنا في المقاسمة » .

ثم يقول « ولا يؤخذ بثمن الاتبان ويقاسمون الاتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا ، أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة » .

« ولا يؤخذ منهم (أي الفلاحين) ما قد يسمونه رواجا لدراهم يؤدونها فى الخراج . فانه بلغني ان الرجل منهم (من الفلاحين) يأتي بالدراهم ليؤديها في الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال : هذا رواجها وصرفها ، ولا يضـرب رجل فى دراهم خراج ولا يقام على رجله فانه بلغني أنهم (أي عمال الخراج) يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهـذا عظيم عند الله وشنيـــع فى الاسلام » .

ومن أجل ذلك كله نرى ان أبا يوسف قد دقق كثيراً في أمر من يولى جباية الخراج فأوصى الخليفة ان يكون والي الخراج فقيها عالمـاً عفيفـاً لا يخاف فى الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة . ويوصي أبو يوسف ايضاً بان يبعث الخليفة أناساً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بهم بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى الخراج وكيف جبوه على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فاذا ثبت عند الخليفة أنهم اساؤوا أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الاخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة

الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد اليهم فيه فان كل ما عمل به والي الخراج من الظلم والعسف فانما يحمل على انه قد أمر بغيره ، وان اخللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره » .

ثم تطرق الامام أبو يوسف عن كيفية تقبيل الارض (الكفالة) فقال « ان النظام المتبع فى جباية الخراج (التقبل) وهو جعل الشخص قبيلا اي كفيلا بتحصيله واخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه . وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الارض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله ، وقد حمل ابو يوسف على هذه الطريقة في التحصيل حملة شديدة وقال للرشيد « ارى ان لا تقبل شيئاً من السواد ولا من غير السواد من البلاد ، فان المتقبل اذا كان فى قبالته فضل على الخراج عسف اهل الخراج وظلمهم فى ذلك وامثاله خراب البلاد وهلاك الرعية . والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بل يفكر بصلاح امره فى قبالته ولعله يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية فيضربهم ويوقفهم فى الشمس ويعلق الحجارة في اعناقهم ، وهذا عذاب لاهل الخراج نهى الله عنه ، انما امر الله عز وجل ان يؤخذ منهم العفو وليس يحل ان يكلفوا فوق طاقتهم .

واجاز ابو يوسف (التقبل) اذا طلبه اهل القرية على شرط ان يعين الخليفة رقيباً رزقه (اي راتبه) من بيت المال ، يراقب المتقبل ويمنعه من ظلم اراده او تجاوز على حقوق الفلاح .

وبحث الامام عن القطائع فقال « ان عمر رضي الله عنه بعد ان فتح العراق اصطفى منها كل ما كان ملكا لكسرى واتباعه واهل بيته مما لم يكن في يد احد

أو لرجل قتل فى الحرب أو لحق بأرض الحرب . وكانت مساحة ما اصطفاه من تلك الأراضي اربعة ملايين جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع ، فيقول أبو يوسف عنها « ان كل من أقطعه الخلفاء المهديون أرضاً من أرض السواد فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء ان يرد ذلك ولا يخرجه من يد من هو فى يده وارثا أو مشتريا ، واذا أخذ الخليفة من يد واحد أرضا وأقطعها الى آخر ، فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً آخر ، فلا يحل للامام ان يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد وللخليفة الحق ان يقطع أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة فأن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج » .

ويعتبر أبو يوسف ان أرض الاقطاع تجعل عشرية اذا قام صاحبها بحفر الأنهار وبناء البيوت .

وينتقل أبو يوسف الى الكلام عن موات الأرض فيقول « ان بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفى بعض قراها أراض كبيرة متروكة لا يرى فيها زراعة ولا بناء لأحد وليست من مرافق قرية من القرى ، فهي موات ، فمن أحياها فهي له وللخليفة ان يقطع ذلك من أحب وله ان يؤجره ويعمل بما فيه صلاح » .

ويعتبر أبو يوسف أرض الموات أرضاً عشرية اذا كانت في أراضي عشرية وخراجية وإن كانت في أرض السواد (الخراج) . وان المحيي اذا احتفر في الأرض بئراً أو شق لها قناة تصبح أرض عشر ، اما إن ساق اليها ماء الخراج فانها تصبح أرض الخراج .

ويوصي الامام ايضاً بقوله « وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل فأحياها

وأدى عنها العشر او الخراج فهي له وليس للخليفـة الحق ان يخرجها من يد المتصرف بها . واعتبر الامام من ارض الموات الجزر فى دجلة والفرات . فاذا كان لرجل جزيرة أو ارض تلاصقها أنهار خصتها من الماء وزرع فيها فهي له بشرط ألا يضر ذلك باحد ولا بسير السفن وكذلك ما يجففه من البطائح بانشاء المسنيات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ما أصلح من الآجام كل ذلك مشروط بألا يكون للارض مالك » .

ويعتبر أبو يوسف: ان الأنهار كدجلة والفرات انما هي بمثابة طرق عامـة للمسلمين ليس لأحد ان يحدث فى الأنهار شيئاً يسبب عطب السفن ومن فعل ذلك ضمن الضرر . وقد رأى الامام ان يوكل أمر الأنهار والملاحة فيها الى رجل ثقة (١) .

هذه هى الأسس العامة التي قام عليها تشريع الخراج كما وردت فى كتـاب الخراج للامام أبي يوسف رحمه الله .

وتشير المصادر التاريخية انه قد بلغ ما حمل من المال الى الرشيد في كل سنة من ارض السواد و نواحيها حسب ما ذكره الجهشياري فى كتابه الموسوم بـ « كتاب الوزراء » ص ٢٨١ـ٢٨٨ فيقول ان أبا الوزير عمر بن مطـرق الكاتب عمل في ايام الرشيد تقديراً (ميزانية) عرضـه على يحيي بن خالد البرمكي لما يحمل الى بيت المال من جميع النواحي ، وسنذكر منها المال الذى كان يجيء من نواحي السواد وهي كما يأتي :

١ـ أثمان غلات السـواد : ثمانون الف الف وسبع مائة الف وثمانون الف درهم (٨٠٧٨٠٠٠٠) .

---

(١) كتاب الخراج لابي يوسف ص ٣ .

٢- أبواب المال بالسواد : اربعة عشر الف الف وثمان مائة الف . الحلل النجرانية مائتا حلة ، الطين للختم مئتان واربعون رطلا (١٤٨٠٠٠٠٠) .

٣- من ناحيـــة كسكر احد عشر الف الف وست مئـــة الف درهم (١١٦٠٠٠٠٠) .

٤- من كورة دجلة : عشرون الف الف وثمان مئـة الف درهم (٢٠٨٠٠٠٠٠) .

٥- من الاهواز : خمسة وعشرون الف درهم من النقود ومن السكر ثلاثون الف رطل .

٦- من البصرة والكوفة : عشرون الف الف درهم (٢٠٠٠٠٠٠٠) .

٧- من حلوان : اربعة آلاف الف وثمان مئة درهم (٤٠٠٠٨٠٠) .

٨- من الديارات والفرات : اربعة وثلاثون الف درهم (١) .

﴿ الخراج على عهد المأمون ﴾

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجيـــة من جميع الأقاليم التي دخلت تحت الحكم العباسي . وسنـذكر ما يخص ارض السواد منها حسب ما ورد في ابن خلدون وقد نقله عنه جرجي زيدان (٢). واليك خراج السواد ونواحيه في هذا العهد :

١- السواد : سبعة وعشرون الف الف وثمانمائة الف درهم . ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ، ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا .

٢- كسكر : احد عشر الف الف وستمائة الف درهم (١١٦٠٠٠٠٠) .

(١) كتاب الوزراء ص ٢٨١-٢٨٨ . (٢) التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٣-٥٥ .

٣ـ كور دجلة : عشرون الف الف وثمانمائة الف درهم (٢٠٨٠٠٠٠٠) .

٤ـ حلوان : اربعة آلاف الف وثمانمائة الف درهم (٤٨٠٠٠٠٠) .

٥ـ الاهواز : خمسة وعشرون الف الف درهم (٢٥٠٠٠٠٠٠) ومن السكر ثلاثون الف رطل .

٦ـ ماه البصرة والكوفة : عشرة آلاف الف وسبعمائة الف درهم (١٠٧٠٠٠٠٠) .

٧ـ من أعمال الفرات : اربعة وثلاثون الف الف درهم (٣٤٠٠٠٠٠٠) والف رأس رقيق واثنا الف زق عسل وعشرة بزات وعشرون كساء .

﴿ خراج السواد على عهد المعتصم ﴾

سجل قدامة بن جعفر فى كتابه الموسوم بـ « الخراج » طبع لندن (١) المقادير التي كانت تجبي من ارض السواد في ايام خلافة المعتصم ثامن خلفاء العباسين من الحنطة والشعير والنقود بصورة مفصلة باعتبار طساسيج السواد أي نواحيه فى الشرق والغرب . وسنبحث عن كل طسوج من حيث موقعه ومقدار خراجه بصورة مفصلة .



(١) سنة ١٣٠٦ هـ .

الفصل الرابع

﴿ طساسيج السواد فى الجانب الغربي ﴾

١ـ ﴿ طسوج الأنبار ونهر عيسى ﴾

الأنبار مدينة على الفرات فى غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ وكان أول من عمرها الفرس وأطلقوا عليها اسم « فيروز سابور » ثم جـدد عمارتها أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس وبنى فيها القصور وأقام بها إلى ان مات . وقال أبو القاسم : الأنبار حد بابل سميت به لأنه كان يجمع بها أنابير الحنطة والشعير والقت والتبن وكانت الأكاسرة ترزق أصحابها منها ، وكان يقال لها « الاهراء » ، فلما دخلها العرب عربتها فقالت « الأنبار (١) » .

فتحت هذه المدينة في ايام خلافة أبي بكر الصديق سنة ١٢ هـ ـ ٦٣٤ م ، على يد خالد بن الوليد ، ولما نازلهم سألوه الصلح فصالحهم على ٤٠٠ الف درهم والف عباءة قطوانية فى كل سنة ونشأ منها عدد كبير من أهل العلم والفضل . وكانت على عهد حكم الفرس لأرض السواد مركز الناحية الـتي عرفت بطسوج الأنبار . وكانت ناحيـة الأنبار فى العهد العباسي تحتوي على نهر عيسى بن عبد الله بن العباس وهي كورة تحتـوي على قرى كثيرة فى غربي بغداد يعرف بهذا الاسم أي نهر عيسى ، ومأخـذه من الفرات عند قنطرة « دما » ثم يمر فيسقي طسوج فيروز سابور « الأنبار » حـتى ينتهي الى المحول ، ثم تتفرع منه أنهار تخترق مدينة السلام ، ثم يمر بالياسرية ثم بقنطرة

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٠ .

الرومية وقنطرة الزياتين وقنطرة الاشنان وقنطرة الشوك وقنطرة الرمان وقنطرة المقبض عند الارحاء ثم قنطرة البستان ثم قنطرة المعبدي ثم قنطرة بني زريق ثم يصب في دجلة عند قصر عيسى بن علي ، وكان عند كل قنطرة سوق يعرف بها (١) .

ويقول مؤلف كتاب « بغداد فى عهد الخلافة العباسية » عن نهر عيسى ما محصله : يقع مخرج نهر عيسى من الفرات على نفس خط العرض الذى تقع عليه بغداد تقريباً فى مكانها على دجلة ، ويتجه نهر عيسى نحو الشرق فينقسم فى الموضع الذى يصفه ابن سيرابيون بانه على مسافة قصيرة نحو ميل واحد قبل وصوله بلدة المحول التي تبعد عن بغداد ثلاثة أميال الى قسمين فيصبح اسم فرعه الأيسر نهر الصراة ويبقى الفرع الأصلي وهو الأيمن محتفظاً باسم نهر عيسى فيعرج هذا الفرع الى الجنوب أولا ثم الى الشمال الشرقي فيؤلف نصف دائرة ويخترق الربض الجنوبي للكرخ ويصب اخيراً فى دجلة فى موضع أسفل المدينة « بغداد » قليلا يعرف بالفرضة .

اما نهر الصراة الذى هو الفرع الايسر لنهر عيسى فيخرج منه فوق المحول ويجري بموازاة الفرع الاصلي حتى يصل الى الجانب الجنوبي الغربي من بغداد ثم ينحرف حول سور المدينة فيمر أمام باب البصرة ويستمر جاريا نحو الشمال الشرقي مسافة قصيرة حتى يصب فى دجلة تحت حدائق قصر الخلد. وكان نهر الصراة الحد الفاصل بين طسوج نهر بوق وطسوج « كلواذي) في الجانب الشرقى من النهر ، وعلى ذلك يقع نصف مدينة بغداد الغربي والشرقي حيث تلتقي هذه الطساسيج الاربعة ، ويقع فى الجانب الغربي من دجلة الذى

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٢

منصفه الآن ، طسوج قطربل وهو على يسار نهر الصراة عند أعلى مجرى نهر دجلة ويقع عند أسفل مجرى دجـــلة وعلى ضفة الصراة اليمنى طسوج « بادوريا (١) » .

ويقول قدامة بن جعفر : ان طسوج الانبار ونهر عيسى من طساسيج السواد فى الجانب الغربي وكان خراجه على عهد خلافة المعتصم فى السنة أحد عشر الفاً وثمانمائة كر من الحنطة وستة آلاف واربعمائة كر من الشعير واربعمائة الف درهم من النقود (٢) .

٢ـ « طسوج مسكن »

مسكن قصبة كبيرة قريبة من « اوانا » على نهر دجيـــل ، ويقول ابن سيرابيون : في الوقت الذى كان المنصور يبني المدينة المدورة كان نهر الدجيل القديم الذى يتفرع من الفرات ويجري نحو دجلة فوق نهر عيسى وبموازاته ولا يزال موجوداً .

ويقول لسترانج : انه يتضح من هذا ان بغداد الغربية كانت تسقى بماء الفرات فقط أثناء القرنين الاولين من تأسيس المدينة ، وبعد هذه الحقبة أي في القرن الرابع الهجري امتلأ مجرى الدجيل الاعلى بالغرين وانقطع عنه ماء الفرات فحفر عندئذ نهر صغير يصل مجرى الدجيل الاسفل بدجـلة من ضفته اليمنى وظل هكذا يروي منطقة « مسكن » الى أمد بعيد (٣) .

ويقول ياقوت : ومسكن على نهر دجيل عند دير الجاثليق وكانت مقراً لطسوج سمي باسمها ، وكانت الواقعة التي جرت بين عبـــد الملك بن مروان

---

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ٥٢ . (٢) كتاب الخراج لابن قدامة ص ٢٣٧ـ٢٤٠ . (٣) بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ٥٢ .

ومصعب بن الزبير فى سنة ٧٢ ﻫ فيها قتل مصعب ودفن هناك وقبره كان معروفاً فيها (١) .

ويقول قدامة بن جعفر : ان مسكن كانت طسوجا من ارض السواد في الجانب الغربي اشتهرت بغلاتها الزراعية ووفرة أثمارها ونخيلها، وكانت تدفع سنويا من الخراج فى العهد العباسي الاول ثلاثة آلاف كر من الحنطة والف كر من الشعير ومائة وخمسين الف درهم (٢) .

٣ـ ﴿ طسوج قطربل ﴾

قطربل في الجانب الغربي من دجلة وتقع على يسار نهر الصراة الذى هو فرع من نهر عيسى . ويقول ياقوت « قطربل اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر (٣) وكانت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها في أشعارهم ومدحوا خمورها وكانت طسوجا من طساسيج بغداد وتقع في غرب نهر الصراة ، اما شرق هذا النهر فيطلق عليه اسم « طسوج بادوريا » . ويقول أبو بكر الصولي : حدثني أبو نخت عن سليمان بن أبي نصر قال : لما عاد أبو نواس من مصر مر بحمص فرأى كثرة خمارها وشهرة الشراب بها ومجاهرة الشاربين بشربها فأعجبه ذلك فأقام مدة فيهامغتبقاً ومصطبحاً ، وكان بها خمار يهودي يقال له « لاوي » فقال لابى نواس : كيف رأيت مدينتنا هذه وحالنا فيها ؟ فقال أبو نواس : حدثنا جماعة من رواتنا ان هذه أرض مقدسة ، فقال له اليهودي الخمار : أبها أفضل عندك ؟

(١) معجم البلدان جـ ٨ ص ٥٤ (٢) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ص ٢٣٧ـ ٢٤٠

(٣) وكان قد اشتهر في العراق خمر طيربان وهي قرية بين السكوفة والقادسية ذات كروم واشجار ونخل ورياض تخترقها الأنهار من كل بقعة من بقاع الفرات .

هذه البلدة ام قطربل ؟ فقال أبو نواس: لولا صفاء شراب قطربل وركوبها كاهل دجلة ما كانت إلا بمنزلة حانة من حانات هذه المدينة . ثم مر أبو نواس في طريقه بحانة فسمع فيها اصطخاب الماء في الجداول فقال قد ذكرني هذا قول الاخطل :

من خمر عانة ينصاع الفؤاد لها بجدول صخب الآذي مـــوار

فأقام فيها ثلاثة ايام يشرب من شرابها ، ثم قدم بغداد وقال : ما قضيت حق قطربل ، فعاد اليها فأقام فيها ثلاثة ايام فأتلف ما كان معه من مال فباع رداء معلماً من أردية مصر كان قد جلبها معه ، ثم أنشد عند انصرافه منها :

طربت الى قطـربل فأتيتها بألف من البيض الصحاح وعين
ثمانين ديناراً جياداً أعدهـا فأتلفتها حـــتى شربت بدين
رهنت قميصي للمجون وجبتي وبعت ازاراً معلم الطرفـــين
وقد كنت فى قطربل اذ أتيتها أرى انـــني من أيسر الثقلين
فروحت منها معسراً غير موسر أقرطس في الافلاس من مئتين
يقول لي الخمار عنـد وداعه وقد ألبستني الراح خف حنين
ألا رح بزين يوم رحت مودعا وقد رحت منه يوم رحت بشين

ثم قال أبو نواس: واجتمع الخمارون للسلام علي فما شبهتهم واياي وتعظيمهم لي إلا بخاصة الرشيد عند تسليمهم عليه فى يوم حفل له .

ولقطربل أخبار ونوادر كثيرة ولو جمع ما قيل عنها بلغت عشـــرات الاجلاد (١) .

يقول قدامة بن جعفر : كانت قطربل طسوجا من ارض السواد فى الجانب

(١) معجم البلدان جـ ٧ ص ١٢٢-١٢٣

الغربي على عهد خلافة المعتصم ، وكان خراجها السنوي يبلغ من القمح الفي كر ومن الشعير الفاً ومن النقود ثلاثمائة الف درهم (١) .

٤ـ ﴿طسوج بادوريا﴾

تقع بادوريا على ضفة نهر الصراة اليمنى وكانت طسوجا من كورة الأستان بالجانب الغربي من بغداد واخيراً ألحقت بكورة نهر عيسى بن علي . ومن قراها النحاسية والحارثية ونهر ارما . وفي طرفه بنيت بعض بغداد ، اذ منه القرية والنجمى والرقة ، وكانت في العهد العباسي الأخير قد قسمت الى قسمين : فالذى كان شرقي نهر الصراة يسمى بادوريا ، وما كان في غربيه فهو من طسوج قطربل .

ويقول عنها أبو العباس احمد بن محمد بن الفرات : ان من استقل من الكتاب ببادوريا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة وذلك لأن معاملاتها مختلفة وقصبتها الحضرة والمعاملة فيها مع الوزراء والأمراء والقواد والكتاب والأشراف ووجوه الناس ، فاذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه الطبقات صلح للامور (٢) .

ويقول قدامة بن جعفر : بادوريا طسوج من طساسيج ارض السواد في الجانب الغربي ، وكان خراجها على عهد المعتصم العباسي في السنة ثلاثة آلاف كر من الحنطة والفي كر من الشعير وثلاثمائة وخمسين الف درهم من النقود (٣) .

---

(١) كتاب الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠

(٢) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٩

(٣) كتاب الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠

٥- ﴿ طسوج كوثى ﴾

يقول لسترانج مؤلف كتاب « بغداد في عهد الخلافة العباسية » : ان نهر كوثي هو احد الأنهار الاربعة الكبرى للري « نهر عيسى ، نهر صرصر ، نهر الملك ، نهر كوثي » ، كانت تتفرع من الفرات وتصب في دجلة (١) .

ويذكر ياقوت الحموي : ان كوثي هـو أول نهر أخرج بالعراق في ارض السواد من نهر الفرات . وكوثى العراق يقسم الى قسمين : الاول كوثى الطريق ، والثانى كوثى ربى ، وبها مشهد ابراهيم الخليل . وكوثى من ارض بابل وتحتوي على ناحيتين . وقد سار سعد بن أبى وقاص من القادسية في سنة ١٠ هـ ففتح كوثى ، وهى بالقرب من بابل (٢) وسكانها كانوا من النبط ، وهي سرة السواد ، وكانت تشتمل على عـدة قرى عامرة (٣) وكان خراجها السنوي الى بيت المال فى العهد العباسي الاول ثلاثة آلاف كر من الحنطـــة والفي كر من الشعير وثلاثمائة وخمسين الف درهم من النقود (٤) .

وتروي المصادر التاريخية ان رستم كان قد نزل في كوثى ، فأتى برجل من العرب فقال له : ما جاء بكم وماذا تطلبون ؟ فقال : جئنا نطلب موعـود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم ان تسلموا ، قال رستم : فان قتلتم قبل ذلك ؟ قال الاعرابي : من قتل منا دخل الجنة ومن بقي منا أنجزه الله ما وعـــده فنحن على يقين ، فقال رستم : وضعنا إذن فى أيديكم ؟ فقال : أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فانك لست تحاول الانس انما تحاول القدر. فغضب رستم وضرب عنقه ثم سار من كوثى ونزل البرس (٥).

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية ص٥٢ (٢) الكامل جـ ٢ ص٢٢٥ (٣) معجم البلدان جـ ٧ صـ ٢٩١ (٤) كتاب الخراج صـ ٢٣٧ (٥) الكامل جـ ٢ صـ ٢٢٥

٦ـ ﴿ طسوج الرومقان ﴾

الرومقان فى أراضي الكوفة ، اشتهر بزراعته ونخيله وكان طسوجا من طساسيج ارض السواد في الجانب الغربي . وذكره ياقوت بانه من طساسيج السواد في سمت الكوفة (١) . وجاء ذكره فى كتاب الخراج لابن قدامة بان خراجه السنوي في عهد خلافة المعتصم العباسي ثلاثة آلاف وثلاثمائة كر من الحنطة ومثلها من الشعير ومائتان وخمسون الفاً من الدراهم (٢) .

٧ـ ﴿ طسوج درقيط ﴾

ورد ذكره فى كتاب الخراج لقدامة بن جعفر بانه كان طسوجا من طساسيج ارض السواد في الجانب الغربي . وكان خراجه السنوي من الحنطة ٢٠٠٠ كر ومن الشعير ٢٠٠٠ كر ومن النقود ٢٠٠٠٠٠ درهم (٣) وقدعين ياقوت موقعه بقوله «... درقيط نهر من كورة بغداد من جهة الكوفة (٤)» .

٨ـ ﴿ طسوج نهر جوبر ﴾

عين ياقوت موقعه قال : جوبر من سواد بغداد على نهر الفرات (٥) .

وذكره قدامة بن جعفر في كتابه بانه كان طسوجا من طساسيج ارض السواد فى الجانب الغربي ، وكان خراجه السنوي من الحبوب ١٥٠٠ كر من الحنطة و ٦٠٠٠ كر من الشعير و ١٥٠٠٠٠ درهم من النقود . يدفع سنويا الى بيت المال فى العهد العباسي الاول ايام خلافة المعتصم سابع خلفاء بني العباس .

---

(١) معجم البلدان جـ ٤ صـ ٣٢٦
(٢) كتاب الخراج صـ ٢٣٧ـ٢٤٠
(٣) المصدر السالف صـ ٢٣٨
(٤) معجم البلدان جـ ٤ صـ ٥٤
(٥) المصدر السالف جـ ٣ صـ ١٥٩

٩ـ ﴿ طسوج باروسما ونهر الملك ﴾

يقول ياقوت : هما ناحيتان من سواد بغداد في الجانب الغربي يقال لهما باروسما الاعلى وباروسما الاسفل من كورة الأستان الاوسط (١) .

ونهر الملك كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى يقال انه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية على عدد ايام السنة. وقيل ان الذي حفر نهر الملك هو الاسكندر الكبير وكان يستمد ماءه من نهر الفرات ويروي الاراضي التي يمر بها ثم يصب في دجلة (٢) . وكان باروسما ونهر الملك في العهد العباسي الاول من النواحي المشهورة بوفرة محاصيلها الزراعية وخيراتها الكثيرة ، وكان خراج هـذا الطسوج من الحبوب على عهد خلافة المعتصم ٣٥٠٠ كر من الحنطة و ٤٠٠٠ كر من الشعير و ١٢٢٠٠٠ درهم من النقود (٣) .

١٠ـ ﴿ طسوج بابل وخطرانية ﴾

يقول قدامة بن جعفر : ان بابل وخطرانية كانت طسوجا من طساسيج ارض السواد في الجانب الغربي في عهد خلافة المعتصم ، وكان خراجها السنوي من الحبوب ٣٠٠٠ كر من الحنطة و ٥٠٠٠ كر من الشعير و ٣٥٠٠٠٠ درهم (٤) .

ويقول ياقوت : بابل وخطرانية اسم ناحية منها الكوفة والحلة تشتهر بالخمر وقيل بابل العراق وقيل بابل دنباوند والعرب تسميها بابل الكوفة . وقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل دهقان الفلوجة عن عجائب بلادهم فقال

---

(١) معجم البلدان جـ ٢ صـ ٣٤
(٢) المصدر السالف جـ ٨ صـ ٣٦٦
(٣) كتاب الخراج صـ ٢٣٩
(٤) المصدر السالف صـ ٢٣٩

كانت بابل سبع مدن في كل مدينة أعجوبة ليست في الآخرى (١) .

١١- ﴿ طسوج الفلوجة العليا والسفلى ﴾

قال الليث عن الفلوجة : ان فلاليج السواد قراها واحدها الفلوجة وتقسم الى قسمين : «١» الفلوجة الكبرى «٢» الفلوجة الصغرى ، وهما قريتان من سواد بغداد والكوفة وتمتد حدودها الى عين التمر وقد اصبحت كل واحدة منها في العهد العباسي مركزاً لناحية تعرف بطسوج الفلوجة العليا وبطسوج الفلوجة السفلى . وفي الصحاح : الفلوجة ، الارض المصلحة للزرع ومنه سمي موضع على الفرات الفلوجة والجمع فلاليج (٢) .

ويقول قدامة بن جعفر : ان الفلوجة العليا كان خراجها في العهد العباسي الاول خمسمائة كر من الحنطة ومثلها من الشعير ومن النقود سبعين الف درهم .

أما خراج الفلوجة السفلى فقد بلغ في السنة ٢٠٠٠ كر من الحنطة و٣٠٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٢٨٠٠٠٠ درهم (٣) .

١٢- ﴿ طسوج عين التمر ﴾

يقول عنها ياقوت : أنها بلدة قريبة من الانبار غربي الكوفة وبالقرب منها موضع يقال له شفاثا تشتهر بكثرة نخيلها وتنتج كمية كبيرة من التمور تصدرها الى سائر البلاد العربية وهي قريبة من البادية وهي قديمة افتتحها المسلمون في عهد خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢هـ

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ١٨ (٢) المصدر السالف ج ٦ ص ٣٩٨
(٣) كتاب الخراج ص ٢٣٧-٢٤٠

وكان فتحها عنوة (١) .

اما خراجها السنوي فقد ذكر قدامة بن جعفر ان طسوج عين التمر كانت تدفع الى بيت المال فى عهد خلافة المعتصم ٣٠٠ كر من الحنطة و ٤٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٤٥٠٠٠ الف درهم (٢) .

١٣- ﴿ طسوج سورا وبرسيما ﴾

ورد ذكرها في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر بانها كانت طسوجا من طساسيج السواد في الجانب الغربي، وكان خراجها في عهد خلافة المعتصم يبلغ من الحنطة ١٥٠٠ كر ومن الشعير ١٦٠٠ كر ومن النقود ٢٥٠٠٠٠ درهم (٣) . وقد عين ياقوت موقعها بقوله : موضع بالعراق من ارض بابل وهي مدينة السريانيين وقد نسبوا اليها الخمر وهى قرية من الوقف والحلة المزيدية .

قال عنها أبو جفنة القرشي :

وفتى يدير علي من ظرف له … خمراً تولد فى العظام فتورا
ما زلت أشربها وأسقي صاحبي … حتى رأيت لسانه مكسورا
مما تخيرت التجار ببابل … أو ما تعتقه اليهود بسورا

وذكره عبد الله بن الحر فى قوله :

ويوماً بسوراء التي عند بابل … أتاني أخو عجل بذي لجب بجر
فنزنا اليهم بالسيوف فأبدروا … لئام المساعي والضرائب والفجر

وكان لسورا نهر يسمى باسمها وطسوج سورا من نواحي الكوفة وكانت

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ٢٥٣ (٢) كتاب الخراج ص ٢٣٧-٢٤٠
(٣) المصدر السالف .

مدينة سورا تقع على نهر يسمى نهر الفورا (١) .

١٤ـ ﴿ طسوج روذمستان وهرمزجرد ﴾

ذكر قدامة في خراجه : ان روذمستان وهرمزجرد كانت طسوجا فى عهد خلافة المعتصم في أرض السواد في الجانب الغربي من العراق، وكان خراجها السنوي الى بيت المال من الحبوب ٥٠٠ كر من الحنطة و ٥٠٠ كر من الشعير ومن النقود عشرين الف درهم (٢) .

وقال عنها ياقوت: هرمزجرد ناحية كانت باطراف العراق غزاها المسلمون ايام الفتوح في عهد خلافة الفاروق عمر واستولوا عليها عنوة (٣) .

١٥ـ ﴿ طسوج تستر ﴾

طسوج تستر من كورة بهقباذ الاسفل من طساسيج الكوفة بالقرب من الحيرة (٤) .

ويقول قدامة فى بحثه عن خراج السواد فى عهد خلافة المعتصم ان مدينة تستر كانت طسوجا من ارض السواد وكان خراجها السنوي من الحبوب ٢٢٠٠ كر من الحنطة و ٢٠٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٣٠٠٠٠٠ درهم(٥).

١٦ـ ﴿ طسوج كسكر (٦) ﴾

كانت كسكر طسوجا فى عهد الخلافة العباسية للمعتصم ، وقد بلغ خراجها

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ صـ ١٦٨ (٢) كتاب الخراج صـ ٢٣٧ـ٢٤٠ (٣) معجم البلدان جـ ٨ صـ ٤٦٠ (٤) المصدر السالف جـ ٢ صـ ٣١٥ (٥) الخراج صـ ٢٣٧ـ٢٤٠

(٦) الخراج كذا ، وكسكر كورة واسعة قصبتها قبل ان يعمر الحجاج واسطا (خسروسابور) ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك وفياوميسان ودست ميسان : الخضري جـ ١ صـ ٢٩١

السنوي ٣٠٠٠ كر من الحنطة و٢٠٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٢٧٠٠٠٠ درهم (١) .

وجاء ذكرها في معجم البلدان بقوله : كورة واسعة تنسب اليها الفراريج الكسكرية لأنها تكثر بها جداً . رأيتها تباع فيها اربعة وعشرون فروجا بدرهم واحد .

قال ابن الحجاج الشاعر :

ما كان قط غذاؤها　　　إلا الدجاج المصدر

وكذلك يجلب اليها البط من بعض ملحقاتها وقصبتها اليوم « واسط » التي تقع بين الكوفة والبصرة . وكان قبل ان يمصرها الحجاج بن يوسف تسمى « خسرو سابور » وكان حد كسكر من الجانب الشرقي يمتد الى آخر سقي النهروان ومن الجنوب الى مصب نهر دجلة في البحر . فهذه الأراضي كلها من كسكر وعلى هذا يدخل ضمن كورة كسكر البصرة ونواحيها ، ومن ملحقاتها المشهورة المبارك ، وعبدس ، والمقرار ، ونفيا ، وميسان ، ودسيان ، وآجام البريد . فلما مصرت العرب الأمصار فرقتها . ومن ملحقات كسكر ايضاً : اسكاف العليا ، واسكاف السفلى ، ونفر ، وسمر ، وبهندف ، وفرقوب ، وبسال . ويقال انه لم يكن بفارس كورة أهلها أقوى من كورتين « ١ » كورة سهلية « ٢ » كورة جبلية . اما السهلية فكسكر ، واما الجبلية فاصبهان . وكان خراج كل واحدة منها فى أبان حكم الفرس لهذه البلاد اثني عشر الف مثقال درهم (٢) .

وتعليقاً على ما أورده ياقوت عن طسوج كسكر أقول : ان هذه الكورة

---

(١) الخراج لقدامة ص ٢٣٧–٢٤٠　　(٢) معجم البلدان ج ٧ ص ٢٥١–٢٥٢

كانت في وقت حكم الفرس تشتمل على ألوية الكوت والعمارة والناصرية والبصرة .

١٧ـ « طسوج نهر سير »

ورد ذكر نهر سير (١) في كتاب الخراج لقدامة عند بحثه عن خراج السواد في عهد خلافة المعتصم فيقول : ان نهر سير كان طسوجا من طساسيج ارض السواد في الجانب الغربي من العراق ، وكان خراجه السنوي ١٧٠٠ كر من الحنطة و ١٧٠٠ كر من الشعير ومن النقود ١٥٠٠٠٠ الف درهم، وقد ذكر الكامل موقعه شرقي الحيرة (٢) .

١٨ـ « طسوج الزوابي الثلاثة »

وهو كذلك من طساسيج ارض السواد ويقع في الجانب الغربي من العراق ، وقد بلغ خراجه السنوي في عهد خلافة المعتصم ٢٣٠٠ كر من الحنطة و ٧٢٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٢٥٠٠٠٠ درهم (٣). وهو من ارض بابل في جنوب باروسما (٤) .

١٩ـ « طسوج النهرين »

وهذا ايضاً كان طسوجا من طساسيج ارض السواد في الجانب الغربي من العراق قرب القادسية بين السيلحين وبين النجف، وقد بلغ خراجه السنوي في عهد خلافة المعتصم ٣٠٠ كر من الحنطة و ٤٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٤٥٠٠٠ درهم (٥) .

---

(١) الخراج ص٢٣٧ـ٢٤٠ (٢) الكامل جـ ٢ ص ١٩١ (٣) المصدر السالف
(٤) الكامل جـ ٢ ص ٢٩٢ (٥) المصدر السالف جـ ٢ ص ٢٢٥

وتشير المصادر التاريخية انه لما نزل رستم بالنجف وأرسل سعد السريا ورستم بالنجف والجالينوس بين النجف والسيلحين فطافت تلك السريا فبعث سوادا وحميضة فى مائة مائة فاغاروا على النهرين (١) .

٢٠ـ « طسوج البرس الأعلى والأسفل »

ذكر قدامة في كتاب الخراج انه كان طسوجا من ارض السواد فى الجانب الغربى وقال ان خراجه السنوي كان فى عهد خلافة المعتصم يبلغ ٥٠٠٠ كر من الحنطة ومن الشعير ٥٥٠٠ كر ومن النقود ١٥٠٠٠٠ درهم .

وقد عين موقعه ياقوت بقوله : البرس موضع بارض بابل، به آثار لبخت نصر وتل كثير الارتفاع يسمى صرح البرس، فسميت تلك الأرض المحيطة به « البرس الأعلى » وما دونها « بالبرس الأسفل » (٢) . ويقول مصدر آخر ان البرس كان طسوجا من طساسيج بابل (٣) .

٢١ـ « طسوج الجبة والبداة »

كان طسوجا من ارض السواد فى الجانب الغربى وكان خراجه السنوي فى عهد خلافة المعتصم ١٥٠٠ كر من الحنطة و ١٦٠٠ كر من الشعير ومن النقود ١٥٠٠٠٠ الف درهم (٤) .

٢٢ـ « طسوج فرات بادقلى »

كان فرات بادقلى طسوجا من ارض السواد في الجانب الغربى ورد ذكره فى كتاب الخراج عند بحثه خراج السواد في عهد خلافة المعتصم ، فقد بلغ

(١) الكامل ج ٢ ص ٢٢٥
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٦
(٣) الكامل ج ٢ ص ٢٥٠
(٤) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠

خراجه السنوي من الحبوب ٢٠٠٠ كر من الحنطة و ٢٥٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٦٢٠٠٠ درهم (١) .

ويبين ابن الأثير موقعه شرقي الحيرة . فتحه خالد بن الوليد ثم توجه الى الحيرة (٢) .

٢٣ـ ﴿ طسوج السيلحين ﴾

وهي من ارض السواد في الجانب الغربي ، ويقول قدامة بن جعفر : انه كان طسوجا في عهد خلافة المعتصم ، وكان خراجه في السنة من الحبوب ١٠٠٠ كر من الحنطة و ١٥٠٠ كر من الشعير ومن النقود ١٤٠٠٠٠ الف درهم (٣) .

ويقول ابن الاثير : ان « السيلحين » كانت تقع قرب الحيرة وكان لها نهر يسمى باسمها (٤) .

---

(١) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠
(٢) الكامل ج ٢ ص ١٨ـ١٩
(٣) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠
(٤) الكامل ج ٢ ص ٢١٧

طساسيج أرض السواد فى الجانب الشرقي من العراق

١- طسوج نهر بوق

يقول ياقوت : نهر بوق طسوج من سواد بغداد في الجانب الشرقي قرب « كلواذي » وزعموا انه جنوب بغداد من كلواذي وشمالها من نهر بوق(١).

ويقول لسترانج : بوق كان يقع بين نهر بين وبين نهر الجعفري الذى هو فرع لنهر الفضل ، ونهر بين هو فرع من النهروان ، فيترك النهروان عند نقطة فوق بلدة النهروان بمسافة قصيرة ويصب في دجلة تحت بغداد بنحو فرسخين عند قرية كلواذي .

اما نهر الفضل فيتفرع من نهر الخالص أحد فروع النهروان الكبيرة ، ويتجه هذا النهر جنوبا ويصب فى دجلة بالقرب من باب الشماسية فى القسم الأعلى من بغداد الشرقية (٢) .

فيتضح من هذين المصدرين ان الأراضي الواقعة بين نهر بين ، وبين نهر الفضل ، انما هو موضع « طسوج نهر بوق » الذي ورد ذكره في كتاب قدامة « الخراج » وذلك عند بحثه عن خراج طساسيج أرض السواد فى الجانب الشرقي فيعهد خلافة المعتصم بقوله: ان طسوج نهر بوق كان خراجه السنوي ٢٠٠ كر من الحنطة و ١٠٠٠ كر من الشعير ومن النقود ١٠٠٠٠٠ درهم (٣).

---

(١) معجم البلدان ج٨ ص ٣٣٧ (٢) بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ١٥٢
(٣) الخراج ص ٢٣٧-٢٤٠

٢ـ ﴿ طسوج بزرجسابور ﴾

ذكره قدامة في أثناء بحثه عن خراج السواد في عهد خلافة المعتصم فقال : بزرجسابور كان طسوجا وكان خراجه السنوي ٢٥٠٠ كر من الحنطة و ٢٢٠٠ كر من الشعير ومن النقود ١٠٠ الف درهم (١) .

وعين لنا ياقوت موقعه بقوله : بزرجسابور من طساسيج بغداد وحده في أعلى بغداد ويمتد الى « العلث » مقابل حربى من شرقي دجلة (٢) .

ويتضح من هذا ان طسوج بزرجسابور كان يقع فى قضاء سامراء .

٣ـ ﴿ طسوج الراذانين ﴾

راذانين: راذان الأسفل وراذان الأعلى، كورتان بسواد العراق (بغداد) تشتمل على قرى كثيرة (٣) وتقع في الجانب الشرقى ، ويقـول عبد الله بن الحر فى ذلك :

أقول لأصحـابي باكناف جازر ورذانهـا هل تأملون رجوعا ؟

ويقول قدامة بن جعفر : ان الراذانين كانا طسوجا فى عهد خلافة المعتصم وقد بلغ خراجه السنوي من الحبوب ٢٨٠٠ كر من الحنطة ومثله من الشعير ومن النقود ١٢٠٠٠٠ درهم (٤) .

وتشير المصادر التاريخية انه عندما تزايد ظلم غلمان الأتراك فى بغـــداد وكثرت تعدياتهم على الأهالي ، عزم المعتصـــم على النقلة منهم وان ينزل فى فضاء من الارض فـــنزل الراذان على أربعة فراسخ من بغداد فلم يستطب

---

(١) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ١٦٤
(٣) المصدر السالف ج ٤ ص ٢٠٤
(٤) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠

هواءها ولا انسع له هواؤها فغادرها (١) .

٤ـ ﴿ طسوج كلواذى ونهر بين ﴾

كلواذى بلدة مهمة تقع على ضفة دجلة الشرقية وتقع تحت بغداد بنحو فرسخ حيث هناك الآن الموضع المسمى بـ« كرره ». وروى ابن حوقل (٣٦٧هـ ـ ٩٧٨م) بان كلواذى كان فيها جامع خاص لصلاة الجمعة ويمكن اعتبارها على هذا بلدة منفصلة ، غير انها كانت تعد في الغالب قسما من بغداد اذ كانت الدور متصلة بعضها ببعض ، من قصور الخلفاء الى كلواذى، وكان بالقرب من الموضع الذى شيد فيه باب كلواذى الكشك الذى كان يقضي فيه الخليفة الأمين أوقات أنسه وراحته ، ولم يبق فى هذا الوقت من قصور الخلفاء فى بغداد الشرقيـــة غير القصر الوحيد المسمى بالقصر الجعفري الذى شرع بتشييده جعفر البرمكي في عهد هارون الرشيد، ثم اتخذه الامين فبنى فيه داراً خاصة به يقضي فيها أوقات أنسه ومرحه بجوار رقة كلواذى وأصبح هذا الموضع يعرف بقصر رقة كلواذى (٢).

ويقول ياقوت : كلواذى ونهر بين طسوج قرب مدينة السلام في الجانب الشرقي منها وفى الجانب الغربي من نهر بوق ، وهى الآن خراب آثارهـا باق بينها وبين بغداد للمنحدر ، وقد ذكرها الشعراء ولهج بذكرها الخلفاء .

ومن أشعار أبي نواس بحق كلواذى :

أحين ودعنا يحي لرحلتـه ... وخلف الفرك واستعلى كلواذى
أتته فقحة اسماعيل مقسمة ... عليه ألا يريم الدهر بغـداذا
تحرفه رده لاقول فقحتـه ... أقم علي ولا هـذا ولا هـذا

وقال مطيع ابن آياس :

حبذا عيشنا الذى زال عنـا ... حبذا ذاك حين لا حبـذا ذا

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ (٢) بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ٢٥١

زاد هذا الزمان شراً وعشراً عندنا اذ أحلنا بغـداذا
بلدة تمطر التراب على النـاس كما تمطر السماء الرذاذا
خربت عاجلا واخرب ذوالعـ ـرش بأعمال أهلها كلواذا

وينسب الى كلواذى جماعة من النحاة منهم أبو الخطاب محفوظ بن احمد بن الحسن بن أحمد الكلواذى الحنبلي الكثير الفضل والعلم والادب والكتابة وغيره من العلماء (١) .

كانت كلواذى ونهر بين طسوجا من السواد فى الجانب الشرقى فى عهد خلافة المعتصم ، وكان خراجها السنوي ١٦٠٠ كر من الحنطة و ١٥٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٣٣٠٠٠٠ درهم (٢) .

ويظهر ان كلواذى خربت فى القرن السادس الهجري على أثر اجتياح المغول بغداد فاندرثت معالمها من الوجود .

٥- ﴿ طسوج جازر والمدينة العتيقة ﴾

كلمة « جازر » مأخوذة من : جزر الماء يجزر ، فهو جازر اذا انصب وهى قصبة من نواحي النهروان من أعمال بغداد قرب المدائن ، والمدينة العتيقة هى القسم الغربي من المدائن التي تسمى الآن طاق كسرى . وكان الفرس يطلقون عليها اسم « بهرشير » حاصرها المسلمون سنة ٦ هـ بقيادة سعد بن أبى وقاص وأقاموا عليها شهرين واشتد الحصار عليها وأكل أهلها السنانير والكلاب ثم دخلها المسلمون (٣)، وقد نشأ منها علماء ومحدثون وأدباء نخص بالذكر منهم أبا علي محمد بن الحسين بن علي بن بكران . روى الحديث عن

(١) معجم البلدان جـ ٧ صـ ٢٧٦-٢٧٧ (٢) الخراج صـ ٢٣٧-٢٤٠
(٣) الكامل جـ ٢ صـ ٢٥٠ ، ومعجم البلدان جـ ٣ صـ ٣٦

القاضـــي أبي الفرج المعافا بن زكريا النهرواني مؤلف كتاب « الجليس والأنيس ».

ويقول قدامة بن جعفـر : ان جازر والمدينة العتيقة كانت طسوجا من طساسيج أرض السواد فى الجانب الشرقى ، وكان خراجها السنوي يبلغ ١٠٠٠ كر من الحنطة و ١٥٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٢٤٠٠٠٠ درهم(١).

ويتضح لنا ان ناحية « سلمان باك » الحالية هي التي كانت تعرف فى العهـد العباسي بطسوج جازر والمدينة العتيقة .

٦ـ (طسوج روسقباذ)

كانت من نواحي الكوفة فى أرض السواد من كورة « استان شاهقباذ » ويقال ان الحجاج نزلها ليقرب من المهلب ويقصده بالرجال فى قتال الخوارج فقال الحجاج وهو هناك : والآن وان ابن الزبير قد زادكم في عطائكم مائة مائة إلا واني لا أمضيها .

فقال له عبـد الله بن الجارود العبدي : ليست بزيادة ابن الزبير ، انما هي زيادة أمير المؤمنين أمضاها منذ قتل مصعباً وهي لا تزال باقية . فأعجب قوله هذا المصريين فخرجوا معه على الحجاج وحاربوه ، فجاء عبد الله بن الجارود سهم فقتله فاستقام أمر الحجاج (٢) .

وتشير المصادر التاريخية ان روسقباذ كان طسوجا فى عهد خلافة المعتصم ، وكان قد بلغ خراجه السنوي الى بيت المال ١٠٠٠ كر من الحنطة و ١٤٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٢٦٠٠٠٠ درهم (٣) .

---

(١) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠ (٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٣٠١
(٣) الخراج ص ٢٣٧

٧- ﴿ طسوج سلسل ومهروذ ﴾

كان طسوجا من طساسيج أرض السواد في الجانب الشرقي من العراق على الطريق المؤدية الى خراسان من كورة « شاذ قباذ » يروي أراضيه نهرا سلسل ومهروذ (١) ، وكانا يتفرعان من نهر ديالى . ونهر مهروذ يسمى الآن « مهروت » من نواحي لواء ديالى . كان خراجه السنوي الى بيت المال فى عهد خلافة المعتصم من الحنطة ٢٠٠٠ كر ومن الشعير ١٥٠٠ كر ومن النقود ١٥٠٠٠٠ درهم (٢) .

٨- ﴿ طسوج جلولاء وجلتا ﴾

يقرن اسم « جلولاء » الى واقعة من أعظم الوقائع الخالدة فى تاريخ الأمة العربية ، وبها كانت الدائرة الشهيرة على الفرس للمسلمين سنة ١٦هـ - ٦٣٨م فاستباحهم المسلمون فسميت جلولاء الوقيعة لما أوقع بالفرس . ويقال انه قتل منهم فى ذلك اليوم ١٠٠٠٠٠ جندي ، فجللت الغبراء بالقتلى ، فقيل جلولاء الوقيعة (٣) .

ويقول ياقوت : جلولاء طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان فى الجانب الشرقي ، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ويمر بها نهر عظيم « نهر ديالى » يمتد الى بعقوبا ويجري بين منازل أهلها ويحمل السفن الى باجسرا (٤).

يقول القعقاع بن عمرو عن وقعة جلولاء :

ونحن قتلنا في جلولا أثابراً ومهران اذ عزت عليه المذاهب

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ١٠٦
(٢) الخراج ص ٢٣٧-٢٤٠
(٣) الكامل جـ ٢ ص ٢٥٥
(٤) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٢٩

ويوم جلولاء الوقيعة أفنيت بنو فارس لما حوتها الكتائب

كانت جلولاء على عهد المعتصم طسوجاً عامراً غنياً بزراعته وكان خراجه السنوي الى بيت المال ١٠٠٠ كر من الحنطة ومثلها من الشعير و ١٠٠٠٠٠ درهم من النقود (١) .

٩ـ ﴿ طسوج الدسكرة ﴾

كانت الدسكرة قصبة في طريق خراسان بالقرب من بلدة « شهرابان : شهربان » اشتهرت بجودة مناخها وكثرة فواكهها ، فكان يقال لها « دسكرة الملك » لأن الملك الفارسي « هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك » كان يكثر المقام بها ، فلهذا سميت بدسكرة الملك (٢) .

ويقول قدامة : الدسكرة كانت طسوجاً في أرض السواد في الجانب الشرقي في عهد الخلافة العباسية للمعتصم ، وكان خراجها السنوي الى بيت المال من الحنطة ١٨٠٠ كر ومن الشعير ١٤٠٠ كر ومن النقود ٦٠٠٠٠ درهم (٣) .

١٠ـ ﴿ طسوج البندنيجين ﴾

من نواحي السواد فى الجانب الشرقى من العراق وهى المعروفة الآن بقصبة « مندلي » مركز أحد أقضية لواء الكوت .

كانت طسوجاً من طساسيج السواد فى عهد خلافة المعتصم وكان خراجها السنوي الى بيت المال ٦٠٠ كر من الحنطة و٥٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٣٥٠٠٠ درهم (٤) .

---

(١) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠
(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٦٠
(٣) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠
(٤) معجم البلدان ج ٤ ص ٦٠

١١- ﴿ طسوج براز الروز ﴾

كانت ناحية من سواد بغداد فى الجانب الشرقى من « استان شاه قباذ » وكان للخليفة المعتضد بالله العباسي فيها أبنية جليلة (١) .

ويقول قدامة : انها كانت طسوجا فى عهد المعتصم وكان خراجها السنوي الى بيت المال ٣٠٠٠ كر من الحنطة و ٥١٠٠ كر من الشعير و ١٢٠ الف درهم نقداً (٢) .

كانت متنزهاً للخلفاء العباسين وهذا دليل على خصوبة أراضيها ووفرة منتجاتها وطيب هوائها وكثرة بساتينها .

١٢- ﴿ طساسيج النهروان ﴾

تشير المصادر التاريخية انه كان بين كسرى أنوشروان وبين غطيانوس ملك الروم هدنة ، فوقع خلاف بين رجل من العرب كان ملكه غطيانوس على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة يقال له المنذر بن النعمان . فأغار خالد على ابن النعمان فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة ، فكتب كسرى الى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد ، وسأله ان يأمر خالداً برد ما غنم الى المنذر ويدفع له دية من قتل من أصحابه، وإن لم يفعل انتقض الصلح . فلم يحفل غطيانوس بكتاب كسرى ، وعندئذ استعد هذا وغزا بلاد الروم عن طريق الجزيرة فأخذ مدينة « دارا » ومدينة « الرها » وعبر الى الشام فملك « منبج » و « حلب » و « انطاكية » وكانت أفضل

(١) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٩٢ (٢) الخراج ص ٢٣٧

مدن الشام وسبي أهل المدينة ونقلهم الى أرض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة « طيسفون » على غرار مدينة انطاكية وأسكنهم إياها وهي التي تسمى الرومية وكون لها خمسة طساسيج : طسوج النهروان الأعلى ، وطسوج النهروان الأوسط ، وطسوج النهروان الأسفل ، وطسوج بادرايا ، وطسوج باكسايا (١) . وكان النهروان أكبر نهر في العراق بعد دجلة والفرات .

ويقول حمزة الاصبهاني: وللنهروان اسمان: أحدهما فارسي وهو « جوروان » والثاني سرياني وهو « نامر » فعرب الاسم فقيل النهروان .

ويقول لسترانج عنه : انه نهر كبير في الجانب الشرقي سمي أوله « القاطول الكسروي » ويتفرع هذا النهر من دجلة عند قصبة « دور » على بعد مائة ميل فوق بغداد ويجري في مجراه خطاً أكثر استقامة من دجلة ويبلغ طوله نحو مائتي ميل ويلتقي أخيراً بدجلة عند « ماذرايا » على بعد نحو مائة ميل جنوبي بغداد ويخترق من الجهة الشمالية الشرقية لبغداد بلدة النهروان الواقعة حوالي منتصفه ، وكانت هذه البلدة النقطة التي يمر بها طريق خراسان الآتي من بغداد والمتجه شرقا نحو بلاد فارس .

ويتفرع من النهروان نهران آخران ، هما الخالص ، وبين ، ويجريان غربا نحو دجلة ، فيلتقي الأول به شمال بغداد ، ويصب ثانيهما به جنوبها . وكانت جميع أنهر بغداد الشرقية فروعا تتفرع بين نهري الخالص وبين . والأول يترك النهروان عند نقطة تقرب من بلدة « باجسرا » ويصب في دجلة عند الراشدية فوق قصبة « بردان » قليلا التي تبعد نحو ثلاثة فراسخ شمال بغداد

---

(١) الكامل جـ ١ ص ١٩٥

اما نهر بين فيترك النهروان عند نقطة فوق البلدة المعروفة باسمه بمسافة قصيرة ويصب فى دجلة تحت بغداد بنحو فرسخين عند قرية كلواذى .

ويتفرع من نهر الخالص نهر يتجه جنوبا يدعى نهر « الفضل » يصب في دجلة بالقرب من باب الشماسية ، ويتفرع من نهر الفضل نهير يسمى « الجعفري » (١) ويقال ان الذى حفر النهروان هم الملوك الساسانيون ، ثم حافظ عليه العرب فنظموا مياهه ونسقوا فروعه وشيدوا المدن والقرى على ضفافه فحولوا بذلك أراضي دجلة الشرقية الى مزارع واسعة وحدائق غناء فعمها الرخاء والرفاه وتكاثر فيها السكان .

ويظهر ان الاقدمين كانوا قد أقاموا سداً عظيما على نهر دجلة فى جوار قصبة « بلد » الحالية لرفع منسوب مياه النهروان وتجهيز المياه الى صدره . ان السد بقي قائماً مدة تربو على ثلاثة آلاف سنة حتى جرفته المياه في العهد الذى عقب تقلص سلطان العرب بعد سنة ٣٠٠ للهجرة . والظاهر ان هذا السد هو نفس السد الذى كان معروفاً فى زمن العرب باسم « سد العلث » (٢) .

وتقول المصادر التاريخيــة انه فى سنة ٣٢٦هـ ـ ٩٣٧م على عهد خلافــة الراضي بالله العباسي ، كان محمد بن رائق قد قبض على زمام الحكم في بغداد ولقب باميرالامراء ، فظهر له منافس بشخص « بجكم » التركى الذى كان قد استولى على واسط وكان يريد ان يحل محله فى الامارة . سار « بجكم » هذا من واسط نحو بغداد في غرة ذى القعدة من تلك السنة ، فما علم ذلك ابن رائق حتى أرسل أحمد بن علي بن سعيد الكوفي الى النهروان فشق ماءه فغمرت المياه طريق ديالى ـ بغداد لكيما تكون عائقاً « لبجكم » .

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ١٥٢ (٢) تطور الري فى العراق ص ٥٩

وما وصل « بجكم » هذا ورأى ما تم قال لأصحابه : يا قوم انهم أحسنوا الينا بهذا العمل بدل ان يسيئوا وأمر باحضار سفينتين ونصب عليها جسراً وعبر النهر عليها هو وجنوده بكل سهولة ووصل بغداد ، وبعد قتال قصير مع جنود ابن رائق انهزموا عنه فدخل بغداد في ١٣ ذى القعدة ولقي الخليفة الراضي من الغد وخلع عليه وجعله أمير الأمراء (١) .

ويقول ياقوت (ت ٦٢٦هـ-١٢٢٨م) : « ... والنهروان قد اندثر ومدنه وقراه أصبحت عبارة عن أطلال خربة لا تزال جدرانها قائمة يراها الناس الى يومنا هذا، وسبب خرابه واندثاره ناجم عن اختلاف سلاطين السلجوقيين وقتال بعضهم بعضاً ، اذ كان كل ما ملك منهم أحد لا يهتم بتعمير البلاد ولا يحتفل بالعمارة ، وكل قصده ان يحوصل ويطير ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى انه كان ممراً للجيوش التي كثرت تنقلاتها من جراء الحروب الأهلية والثورات الداخلية التي كانت قائمة على ساق وقدم بين الأمراء المتنازعين على الحكم فى طول البلاد وعرضها آنذاك ، فجلا عنه أهله واستمر خرابه واندثرت خيراته ، بعد ان كان من أجل نواحي بغداد وأكثرها دخلا وأحسنها منظراً وأبهاها مخبراً وأوفرها انتاجاً (٢) . وكان النهروان في عهد خلافة المعتصم منقسما الى ثلاثة طساسيج «١» طسوج النهروان الأعلى «٢» طسوج النهروان الأوسط «٣» طسوج النهروان الأسفل .

فاما الأول : فكان خراجه السنوي من الحنطة ١٧٠٠ كر ومن الشعير ١٤٠٠ كر ومن النقود ٣٥٠٠٠٠ درهم .

واما الثاني : فكان خراجه السنوي من الحنطة ١٠٠٠ كر ومن الشعير

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٥٠٥ (٢) معجم البلدان ج ٨ ص ٣٤٧

٥٠٠ كر ومن النقود ١٠٠٠٠٠ درهم .

واما ثالثهم : فقد بلغ خراجه السنوي ١٧٠٠ كر من الحنطة و ١٣٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٥٣٠٠٠ درهم (١) .

١٣- « طسوجا بادرايا وباكسايا »

كانت بادرايا وباكسايا في عهد ملوك الفرس أيام حكم « كسرى أنوشروان » طسوجين من أعمال مدينة الرومية حين عمرها كسرى لسبايا أهل مدينة « انطاكية » وأسكنهم اياها (٢) .

ويذكر ياقوت : ان بادرايا بليدة بالقرب من باكسايا بين « البندنيجين » ونواحي « واسط » وتنتج التمر والقسب اليابس وهي في غاية الجودة (٣) .

نقول تعليقاً على ما أورده ياقوت : ان بليدة بادرايا هي الآن قصبة « بدره » مركز القضاء المسمى باسمها تابعة للواء الكوت ، اما قسب « بادرايا » فهو ما زال مشهوراً في الموصل بجودته ، ويطلق عليه الأهلون « قسب بادرايا » حتى يومنا هذا .

كانت في عهد خلافة المعتصم العباسي طسوجا من أرض السواد الشرقية وكان خراجها السنوي ٤٧٠٠ كر من الحنطة و ٥٠٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٣٣٠٠٠٠ درهم (٤) .

١٤- « طسوج كور دجلة »

يؤثر عن المصادر التاريخية ان الملك أردشير بهمن بن اسفنديار ، بنى بكورة

---

(١) الخراج ص ٢٣٧-٢٤٠

(٢) الكامل ج ١ ص ١٩٥

(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨

(٤) الخراج ص ٢٣٧-٢٤٠

دجلة « الأبلة » (١) . ويطلق على الأراضي الواقعة ما بين ميسان والبحر من أعمال البصرة كور دجلة (٢) . وكانت طسوجا من أرض السواد الشرقية فى عهد خلافة المعتصم وبلغ خراجها السنوي ٩٠٠ كر من الحنطة و ٤٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٤٣٠٠٠٠ درهم (٣) .

١٥ـ ﴿طسوج الصلح﴾

كورة فوق « واسط » لها نهر يستمد ماؤه لها من نهر دجلة على الجانب الشرقي يسمى « فم الصلح » وبها كانت « منازل الحسن بن سهل » وقد شيد فيها قصوراً فخمة أخنى عليها الزمان فاندرست معالمها بمرور الزمان ولم يعد يعرف مكانها (٤) . وكان خراج هذه الكورة فى عهد خلافة المعتصم سنويا ١٠٠٠ كر من الحنطة و ٣١٢١ كر من الشعير و ٥٩٠٠٠ درهم من النقود (٥) .

١٦ـ ﴿طسوج الذيبين﴾

ذكره قدامة بوصفه طسوجا شرقياً من أرض السواد كان خراجه السنوي فى عهد المعتصم ١٩٠٠ كر من الحنطة و ١٣٠٠ كر من الشعير ومن النقود ٤٠ الف درهم (٦) .

---

(١) الكامل ج ١ ص ١١٩
(٢) معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٣
(٣) الخراج ص ٢٣٧ـ٢٤٠
(٤) المصدر السالف ج ٥ ص ٣٧٩
(٥) المصدر السالف
(٦) المصدر السالف ص ٢٣٧ـ٢٤٠

١ـ ﴿ مجموع خراج السواد في عهد خلافة المعتصم ﴾

بلغت جباية الخراج لأرض السواد في عهد هذا الخليفة ما يأتي :

١ـ ٦٠٠ ١١٥ كر من الحنطة .

٢ـ ٩٢١ ١٢٣ كر من الشعير .

٣ـ ٨٠٠ ٨٢١ ٨ درهم .

على ان هذا الخراج يختلف عما أورده قدامة بعد ان ذكر خراج كل ناحية على حدة بالتفصيل كالمتقدم . فقد جاء فى كتابه بصدد المجموع العام ما يلي :

« فذلك ارتفاع خراج السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كر ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » .

ولعل السبب في هذا الفرق الخطأ بقراءة بعض الأعداد على ان الفرق على خطورته وجسامته لا يعتد به نظراً الى الرقم الأكبر العام .

بقي علينا تحويل أوزان الحنطة والشعير الى دراهم ، وقد فعل ذلك قدامة واعتبر ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً والدينار على صرف خمسة عشر درهما ، فبلغ ذلك ١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما . وأضاف الى ذلك قوله : ان صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فاذا جمت الى ذلك كله بلغ الناتج ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على الصورة الآتية :

٨٠٠ ٠٩٥ ٨ الدراهم المجموعة ورقا .

٨٥٠ ٣٦١ ١٠٠ ثمن الحنطة والشعير مقدراً بالدراهم .

٠٠٠ ٠٠٠ ٦ صدقات البصرة .

المجموع ٦٥٠ ٤٥٧ ١١٤ درهما (١) .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٢٠ تاليف الدكتور حسن ابراهيم حسن .

٢- تناقص خراج السواد

بقي قانون جباية الخراج نافذ المفعول في الدولة العباسية في جميع أدوارها، ففي عهد خلافة المستعين (٢٤٨-٢٥١هـ = ٨٦٢-٨٦٨م) بلغ خراج السواد ٨٤٣٠٩٣٤٠ درهما، وفي عهد خلافة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ = ٩١٨-٩٣٢م) بلغ خراج السواد ٤٩٧٣٦٢٣٥ درهما (١).

من هذه المقارنة البسيطة بين خراجي أرض السواد في فترة قريبة لا تزيد عن نصف قرن، نرى الى أية حال بلغت بالتدهور اقتصاديات العراق في فترة وجيزة من الزمن أدرك فيها أراضيه الاهمال والخراب فتناقصت الحاصلات ومن ثم الخراج الى ما يزيد قليلا على الثلث. هذا اذا لم ندخل في حسابنا ما كان عليه الخراج أيام الخلفاء الراشدين ثم الأمويين من بعدهم ثم المجموعة الأولى من الخلفاء العباسيين الأقوياء.

وسنبحث فيما يلي عن الأسباب التي أدت الى تأخر الحالة الاقتصادية في العراق بعد انتهاء العصر العباسي الأول وانقضاء عهد الخلفاء الأقوياء بموت المعتصم.



(١) تطور الري في العراق ص ٦٧

الفصل الخامس

«تدني الحالة الصحية والاقتصادية في أرض السواد»

من أهم العوامل التي أدت الى هذه الكارثة، ظهور ما يسمى بـ «البطائح» في أرض السواد من جراء الفيضانات التي اجتاحته في أدوار مختلفة من تاريخ الانحطاط، ولم تمتد يد الى استصلاح ماخربته تلك الفيضانات، ولم يعر أولو الأمر من المسؤولين اهتماما، ولم تتخذ الأهبة لتحويل تلك الكارثة الدورية التي كانت كالسيف المسلط على رقبة أرض السواد، وكان الحكام الصالحون يتداركون خطرها كلما ذر قرنها ليحفظوا أرض السواد الغنية جداً التي تدر كما في الأمثال «لبناً وعسلا».

نقول كانت مياه هذه الفيضانات تبقى في الأراضي ولا تنصرف أو تصرف وبذلك تحولت مساحات كبيرة من السواد الى مستنقعات وأهوار صارت بتمادي الزمن بؤرة فاتكة ومصدراً رئيسياً للامراض الوبيلة والأوبئة القاتلة كالملاريا وأمراض الديدان الخطيرة، أخذت تفتك في الأهلين فتكاً لا هوادة فيه ولا رحمة، فتناقصت الأيدي العاملة حتى كادت تتلاشى وهجرت الأراضي «حتى التي لم تتحول الى مستنقعات» ثم قلت مساحة الأراضي الصالحة للاستغلال فاضطر الباقون من السكان الى الهجرة فتفرقت مئات الألوف بل ملايين الأنفس في أرجاء الصحراء، وهجرت أرض السواد تنعي من بناها، وها نحن أولاء نفصل الأسباب فيما يلي:

١ـ (البطائح)

تشير المصادر التاريخية الى ان مدينة « واسـط » كانت فى أيام الملك دارا بن دارا ، تسمى « افرونية » ولم تكن على شاطيء دجلة ، بل كانت دجـلة تجري على سنها فى ناحية « بطن جوخا » ففاضت دجلة في أيام المـلك بهرام وزادت زيادة عظيمة وغيرت مجراها الى المذار (١) وصارت تجرى الى جانب موقع واسط « مجرى الغراف » منصبة فيه ، فأغرقت القرى والعمارات الـتي كانت مشيدة في موضع البطائح الكثيفة السكان وكانت متصلة بالبادية ولم تكن البصرة ولا ما حولها إلا « الابلة » وكانت فى موضـــع البصرة قرى عادية عفوفا بها لا ينزل بها أحد ولا يجري بها نهر إلا دجلة الأبلة . وأعقب هذا الفيضان وباء ماحق فأصاب القرى والمدن التي كانت فى موضع البطائح فخرج أهلها هاربين هائمين على وجوههم مستقبلين الصحراء فخلت تلكم الأرض من قاطنيها وغمرت بماء الفيضـــان ، وهكذا بدأت البطائح تتكون فى أرض السواد (٢) .

وذكر البلاذري قوله : لما كانت السنة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عبدالله بن حذافة الى كسرى ابرويز وهى السنة السابعة للهجرة ، زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة لم ير مثلها قبلها ولا بعدها ، وانبثقت بثوق عظام ، فجهد كسرى ابرويز ان يسكرها فغلبه الماء ومال الى موضع البطائح فطفا على العمارات والزرع . ثم دخلت العرب أرض العراق وشغلت الأعاجم بالحروب فكانت البثوق تنفجر فـلا يلتفت اليها فأتسعت البطيحة الـتي تكونت فى الجنوب بين

(١) بينها وبين البصرة اربعة ايام الى الشمال من واسط وهي قصبة ميسان .
(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٧٤

الكوفة والبصرة . ثم ان روايات تاريخيـــة اخرى تؤيد ما ذكره البلاذري بخصوص ما وقع فى عهد كسرى ابرويز من فيضان عظيم تقول « وزادت دجلة زيادة عظيمة مفرطة ، وزاد الفرات ايضاً بخلاف العادة، فعجز عن سدها فبطح الماء فى تلك الديار والعمارات والمزارع وأغرق عدة طساسيج ، فطرد أهلها عنها . فلما نقص الماء وأراد كسرى ابرويز العمارة أدركته المنيـة وولي بعد ابنه « شرويه » (١) . وفى عهده تفشى الطاعون فى تلكم البقـاع فهلك فيه مائتا الف ، والمكثر يقول نصف السكان ، والمقل يقول الثلث (٢). ولم تطل مدة « شرويه » في الحكم فتوفي . وولي بعده نساء لم تكن فيهن كفاية . ثم جاء الاسلام فاشتغل الفرس مع العرب بالحروب والجلاد ولم يكن للمسلمين آنذاك الدراية والوقت الكافى لدرء أخطار الفيضانات ، أضف الى ذلك انشغالهم فى الفتوحات . كان هذا الطوفان أول ضربة قاصمة سقطت على أرض السواد.

كان من أثر الفيضان الكاسح هذا انهدام السدود العظيمة ومن بينهـا سد « نرود » الجبار ، وتحول الأنهر عن مجاريها الأصلية . وهكذا انقلبت الأراضي الجنوبية الى أهوار ومستنقعات فسيحة الأرجاء تمتد الى أبعد مدى البصر كالبحر . والأرجح ان هذا الفيضان الشهير لعب دوراً مهما في تحويل مجرى نهر الفرات بعد ان كان يسلك باتجاه بابل من ناحية شط الهندية الحالي اذ خرب الجداول والسدود واستولى على الأراضي المنخفضة بين الكوفة والبصرة فجعل منطقة واسعة منها بحيرات ومستنقعات سميت في زمن العرب البطائح (٣).

---

(١) الكامل ج ١ ص ٢١٦ (٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٧٤
(٣) تطور الري في العراق ص ٥٣

وعندما استولى الأمويون على العراق شرع ولاتهم وعمالهم في مكافحة الفيضانات وتجفيف البطائح والمستنقعات . وقد سجل التاريخ أعمالا مجيدة لولاة العراق هؤلاء، وفي مقدمتهم الحجاج بن يوسف الثقفي الذي جفف بعض أراضي البطائح . قام هذا الامير الحازم باعمار نحو خمسين الف ايكر من الاهوار بين القرنة والبصرة ، ثم استفاد من مجرى دجلة الجديد ففتح عدة جداول منه لارواء الاراضي ، وفي الوقت نفسه شيد على ضفافه عدة مدن أكبرها مدينة واسط التي أصبحت من أهم مدن السواد في العهد الاموي وزاد خراج السواد على عهد ولاية الحجاج وقد سبق بيان ذلك .

وفي العهد العباسي الأول كانت العناية بارض السواد من قبل خلفاء هذا الدور عظيمة ، فيقول السر وليام ويلكوكس في كتابه عن ري العراق القديم « ان أعمال الخلفاء في ري العراق في الايام الماضية تشبه أعمال الري في كل من مصر والولايات المتحدة الاميركية واستralية في هذا العصر » .

ولقد أزهر الري في أرض السواد وبلغ ذروته في عصر الازدهار العباسي حيث ان المؤرخين لم يذكروا لنا ان فيضانا اجتاح أرض السواد في عصر العباسيين الذهبي ، ولم تطغ المياه في تلك الفترة الطويلة فأحدثت ما كانت تحدثه سابقاً في الاموال والارواح ، فهل لم تفض تلك الانهار في هذه الحقبة من الزمن في مواسم فيضانها الطبيعي ؟

مما لا شك فيه ان أنهار العراق في تلك الازمان كانت تصرف مياهها الفائضة بالغة ما بلغت في الجداول والترع والنهيرات العديدة التي شقها بنو العباس من الخلفاء والامراء المسؤولين على طول نهري دجلة والفرات ، هي التي حالت دون طغيان مياه الفيضان على القرى والمزارع العامرة في أرض

السواد . ونذكر من الانهار التي فتحها العباسيون لهـــذا الغرض ولغرض الارواء على ضفة الفرات اليسرى بين الفلوجة والكوفة : نهر عيسى ، ونهر صرصر ، ونهر الملك ، ونهر كوثي .

كما أنهم حفروا من الضفة اليمنى لنهر دجلة جدول الاسحاقي والدجيـــل، وذلك لدفع كوارث الفيضان ولارواء أراضي شمال بغـداد ، ثم اهتموا بامر النهروان فشقوا منه فروعا عديدة كجـــدول الخالص ، ونهر بين ، ونهر الفضل ، ونهر الجعفري وغيرها من الجداول . على ان جهودهم تناولت ايضاً استصلاح قسم كبير من أراضي المستنقعات الممتدة بين القرنة والبصرة وهكذا رجع السواد الى سابق عهده وعمه الرفاه والرخاء طوال العهد العباسي الاول ولم تكد هذه الفترة تنقضي حتى عاد الامر كما كان عليه كما ألمعنا اليه فيما سبق.

٢ـ ﴿ استيلاء الشعوبيين على مقاليد الحكم ﴾
وكوارث الفيضانات في أرض السواد

بدأت الكوارث تنصب على العراق منذ حدث النزاع بين الاخوين الامين والمأمون على منصب الخلافة ، وحدث ما حدث في بغداد وملحقاتها من مذابح دامية تجلت فيها منتهى القسوة ، وانقسم الشعب الى حزبين (١) حزب الامين (٢) حزب المأمون ، وأدت تلك الحروب الى قتل الامين وانتصار المأمون واستيلائه على الخلافة، وأخذت النعرات الطائفية تتململ من مضجعها وتنفث سمومها بين الناس ، ولكن قوة الاستمرار والاسس القوية التي وضعها كل من المنصور والرشيد للدولة حالت دون ذلك لمدة قصيرة من الزمن ، ولكن عوامل الهدم في كيان الدولة العباسية ظلت تعمل فى الخفاء على تقويض

بناء تلك الدولة العظيمة . فقد أخذ المعتصم منذ تولى الخلافة عام ٢١٨ هـ ـ ٨٣٣ م ، يكثر من الشبان الأتراك ويزيد قوة هذا العنصر على العنصر العربي. فازداد الاخير ضعفاً وتفرق العرب الى قبائل وبطون وأفخاذ ، وعاد كثير منهم الى مواطنهم فى الصحراء ، ونتج عن ذلك أن وجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالحكم وازداد نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى ان أيديهم امتدت الى حيوات الخلفاء وأموالهم .

ثم أخذ هؤلاء المتغلبون يقتتلون فيما بينهم على الاستئثار بزمام الدولة وجاه السلطان ، وطفقوا ينزع بعضهم الولاية من بعض ، واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس ، إلا ان السلطان الحقيقي على ما بقي بايديهم من البلاد كان للأتراك .

ثم تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم وهم أولاد آل « بويه » فانتزعوا الحكم من الأتراك ببغداد وجعلوا العراق ملكا لاحدهم يتصرف فيه والخليفة قابع في قصره يأتمر بأمره .

وفى أوائل القرن الخامس الهجري ظهر عنصر جديد دخل في الاسلام حديثاً وهاجر من بلاده متجهاً الى الغرب وهو عنصر الغز من الأتراك ، قدموا مما وراء جيحون وسيحون وعلى رأسهم بيت عظيم هو البيت السلجوقي زحفت هذه الامة الى بغداد وامتلكتها وأزالت عنها ملوك آل بويه وأصبح آل سلجوق هم المسيطرون على شؤون الدولة العباسية ، واستمر الوضع على هذه الحال حتى خرج سيل المغول الجارف واجتاح الدولة العباسية من الشرق حتى الغرب .

وقد كان لاحتلال المغول العراق فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ،

وسقوط الخلافة العباسية في بغداد الضربة القاضية على بلاد ما بين النهرين ، اذ عندما تدفقت جيوش المغيرين المتعاقبة كان من الطبيعي ان يشل الجهاز الاقتصادي كله وعموده الفقري الزراعة والعناية بالاراضي ، فأهملت السدود وراحت مياه الأنهار تجري لطينها هدراً دونما رقيب ، فنتج عن ذلك تراكم ترسبات الطمى فى سائر الجداول والترع والنهيرات، فجرفت السدود وغمرت المياه المتدفقة من الأنهار فشكلت بذلك أهواراً واسعة كانت السبب فى خراب القطر العراقى بامره .

ويقول لونكريك : ان أعظم أعمال التخريب التى ارتكبها (هولاكو) هو ذلك التخريب المتقن فى السدود والأنهار ونواظم الاسقاء .

واستمرت التخريبات بسبب استمرار الاضطرابات والفتن وفقدان روح الجد والمثابرة بين الاحياء من السكان القليلين بعد تلك المذابح الدموية والتخريبات الهائلة . فقد انتابهم يأس قتال وعدم اكتراث ما تزال آثاره ظاهرة العيان لدى سكان العراق الحاليين ، اذ ما نفع الاعتناء بجدول أو سد اذا كان سيهدم بظرف ساعة من الزمن وقد استغرق بناؤه السنوات الطوال؟ وهكذا تراكم الطمى والغرين وتكاثرت الترسبات بحيث غدت الأنهر مطمورة لا تستوعب الماء الكافي ولا يمكن ضبطها عند الفيضان .

وقد قام « تيمورلنك » فى أواخر القرن الرابع عشر باعمال تدميرية كالتى قام بها سلفه هولاكو ، فبدد كل أمل باصلاح .

وتوالت النكبات واستحكم الفقر وكثر سفك الدماء واضطرب حبل الامن الذى سببه تعاقب الحكومات الاجنبية المتعددة ، كما ان عهد الأتراك الطويل وعدم استقرار الحكومات المحلية وقلة الكفايات جعلت العراق يعاني أشد فقر

وأهوله دعك من الامراض والجهل .

كانت العناصر السياسية المتغلبة بدائية لم تأخذ بجانب من الحضارة ولم يكن لديها فكرة عما يعني بذل العناية بالاراضي والمحاصيل الزراعية والتفكير البعيد في مصرف لمياه الفيضان الخ ... بل كان كل همها ان تنهب ما يمكن نهبه من السكان المساكين الذين كان عددهم يتناقص يوما بعد يوم تناقصاً محسوساً حتى أطل علينا فجر القرن التاسع عشر الميلادي فاذا بارض السواد بلقع واذا بالسدود والأنهار والجداول والترع رسوم دارسة وأطلال أثراً بعد عين والبلاد كلها مقسمة الى اقطاعات وأمارات تذكرنا باوروبا في القرون الوسطى بل بأدهى من ذلك العهد وأمر ... ان هذه الآثار ما زالت حتى الآن باقية في مجتمعنا على شكل عادات وتقاليد وأنظمة وأخلاق !! .



الفصل السادس

﴿ الفيضـــانات فى العراق ﴾

« إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة »
« وتعيها أذن واعية ، صدق الله العظيم »

ان أثراً واقعياً عظيما ، وعبرة خالدة من ذلك التاريخ البعيـــد ، ما زالت شاخصة لنا في مواسم الفيضان الحالية عندنا . فـــي الوقت يهيب بنا الخطر الماحق السنوي لا نرى ضيراً من ان نلـتي نظرة الى الوراء على الفيضـانات الشهيرة التي كانت عاملا متتالياً فى تردي الاوضاع الاقتصادية، ومن ثم تفشي الامراض وتناقص القوى الجسمانية والفكرية فى سلالة شعبنا ساكن هذه الربوع .

فاول ما يسجله التاريخ العام منها فيضان سنة ٣٦٧هـ ـ ٩٧٧م ، حيث زادت دجلة زيادة عظيمة وأغرقت كثيراً من الجانب الشرقى من بغداد ، وأغرقت مما أغرقت مقابر باب التبن « صوب الكرخ » وأشرف الناس على الهلاك (١) ثم ان الماء اجتاح جميع القرى والمزارع الموجودة على ضفاف دجـــلة ، ثم نقص الماء فأمن الناس وهدأ روعهم على أرواحهم .

ثم غرقت بغداد وأرض السواد ايضاً سنة ٤٠١هـ ـ ١٠١٠م بفيضـان نهر دجلة وبلوغها ذروة الخطر وغمرت مدينة بغداد وملحقاتها وجميـع النواحي

(١) الكامل جـ ٨ ص ٢٧٦

الجنوبية وركب السكان السفن بغية النجاة وهدم الماء زهاء الف دار من دور بغداد .

ثم تذكر الروايات التاريخية فيضانا آخر حدث سنة ٤٦٢ هـ - ١٠٦٩ م لدجلة أغرق الجانب الشرقي من بغداد وقسما من جانبها الغربي (١) .

وفى سنة ٤٦٦ هـ - ١٠٧٣ م حدث فيضان آخر أغرق الجانب الشرقي وقسما من الجانب الغربي حيث انفتح « القورج » (٢) عند المسناة المعزية وجاء في الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية مع ريح شديدة وتدفق الى المنازل من فوق ونبع من البلاليع والآبار فى الجانب الشرقي وهلك خلق كثير تحت الهدم وشدت الزوارق تحت التاج خوف الغرق . وقام الخليفة « القائم بامر الله » يتضرع الى الله ويصلي وعليه البردة النبوية وبيده القضيب ، وغرقت في هذا الفيضان في الجانب الغربي من بغداد مقبرة أحمد بن حنبل ومشهد باب التبن (٣) .

ان هذا الفيضان العظيم كان قد خرب بغداد وأنزل بها الخسائر الجسيمة فى الارواح والاموال . لكن المؤرخ لم ينوه بالخسائر التي لحقت المدن والقصبات جنوبي بغداد حتى مصب دجلة ، وهى لا شك جسيمة تفوق خسائر بغداد بكثير لان بغداد بوصفها العاصمة ومقر الخليفة لا بد وقد اتخذت احتياطات لوقايتها من خطر الغرق كاقامة المسنيات والسدود فى فتحاتها .

---

(١) غرائب الأثر ص ٨

(٢) القورج هو نهر بين القاطول وبغداد منه يكون غرق المدينة كل وقت ، حفره كسرى وكان بلاء أهل بغداد منه ، فانهم يجتهدون فى سده واحكامه بغاية جهدهم ، واذا زاد الماء فافرط بثقه وتعدى الى دورهم وبلدهم فخربه .

(٣) الكامل ج ١٠ ص ٣٧ و ٣٨

وفى عام ٥٠٢هـ - ١١٩٨م فاضت دجلة وأتلفت الزرع وأغرقت طرقات بغداد فارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا فاحشاً وقاسى الاهلون من جراء ذلك مشاق جمة (١).

ولقد اجتاح العراق والمدن الواقعة على دجلة سنة ٥٥٤هـ - ١١٥٩م فيضان كاسح أغرق معظم مدينة بغداد والمدن العراقية الاخرى . وبيان ذلك انه فى شهر ربيع الآخر من تلك السنة كثرت الزيادة وجاوزت الحد وكسر الماء القورج فوق بغداد وأقبل المد الى المدينة فامتلأت به الصحاري وخندق السور وهدم الماء السور ففتح فيه ثغرة فوقع بعض السور ثم كر الماء عليه ثانية ففتح فيه ثغرة اخرى ، فاهملت ظناً من انها قد تنفس عنه لئلا يهدم ما بقي منه فتغلب الماء وتعذرسده فغرقت محلة « قراح ظفر » ومحلة « الاجمة » ومحلة « المختارة » ومحلة « المقتدية » ومحلة « درب القبار » ومحلة « خربة ابن جردة » ومحلة « الريان » ومحلة « قراح الشحم » وبعض من محلة « قراح ابن رزين » وقسم من محلة « المظفرية » من محلات الجانب الشرقي من بغداد ، وتسرب الماء تحت الارض الى أماكن اخرى فسقطت ، فدب الرعب بين السكان وأخذوا يفرون الى الجانب الغربي « الكرخ » .

ثم نقص الماء وتهدم السور وبقي الماء الذى كان داخل السور يتسرب فى المحلات التى لم يركبها الماء فكثرت الخرائب وبقى كثير من المحلات لا تعرف لانها أصبحت على شكل تلول فاخذ الناس يعينون حدود دورهم بالتخمين .

ان المياه غمرت ايضاً في الجانب الغربي « مقبرة ابن حنبل » وغيرهـا من القبور فانخسفت وخرج الاموات على سطح الماء وطفت الهياكل العظمية ،

(١) الفوز بالمراد في تاريخ بغداد .

وغرقت ايضاً المشهد ومحلة الحربية و « ... كان أمراً عظيما » (١) .

وأصيبت ايضاً بكارثة غرق اخرى سنة ٥٦٨هـ ـ ١١٧٢م ، فاضت دجلة كالعادة وأشرفت بغداد على الغرق ، فقام السكان بسد أبواب الدروب بغية منع تدفق المياه الى دورهم ، ووصل الماء الى قبة أحمد بن حنبل في الجانب الغربي ، وأغرقت المياه ايضاً محلات متعددة ، وغرقت « المدرسة النظامية » و « رباط شيخ الشيوخ » واشتغل السكان ليلا ونهاراً في تقوية الفورج ثم أدركتهم العناية الالهية فنقص الماء وكفى الناس شره (٢) بعد ان عبث هذا الطوفان في المدن والقرى الاخرى وخرب الدور وأغرق الشيوخ والاطفال والنساء وترك وراءه الامراض والاوبئة تفتك بالسكان فتكا ذريعاً .

ما كادت بغداد ومدن الجنوب الاخرى المنكودة تداوي كلومها وتجفف مياه هذا الطوفان الرهيب من دورها وأراضيها ، حتى باغتها الطاغية مرة اخرى بفيضان عنيف بلا هوادة أو رحمة . وكان ـ حسبما يستفاد من المقارنات التاريخية ووصف الروايات التي نقلت عنه ـ أعنف وأشد فيضان صادفته بغداد منذ بنائها حتى ذلك التاريخ . ففي سنة ٥٦٩هـ ـ ١١٧٣م كان الفصل في العراق ربيعاً ، فتوالت الامطار في مدن دياربكر والموصل ودام سقوط المطر أربعين يوما متوالية لم ير الناس خلالها الشمس إلا مرتين ، كل مرة بمقدار لحظة واحدة فخربت المساكن وكثر الهدم في بغداد والموصل ومات تحته كثير من الناس ، وأعقب هذه الامطار فيضان دجلة الجبار . زادت مياهه زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد بعد ان صب في حوضه جميع الروافد بين الموصل وبين بغداد ومنها الزابان . زادت زيادة تقدمت ما سبق

---

(١) الكامل ج ١١ ص ١١١-١١٢ (٢) المصدر السالف ج ١١ ص ١٧٧

من الزيادات بذراع واحد ، وخاف السكان ان تطغي عليهم المياه وهم نيام ، فغادروا المدينة وأقاموا على شواطيء دجلة خوفاً من انفتاح « القورج » فدخل الماء « المارستان العضدي » ودخلت السفن من الشبابيك التي له ، فانها كانت قد تقلعت ، ثم تناقص الماء بعد ان كادت المدينة تغطى بالماء (١) .

وفي عام ٦٠٤هـ ـ ١٢٠٧م تعرضت بغداد والمدن الواقعة الى جنوبها لخطر الغرق ، ففي تلك السنة زادت مياه دجلة زيادة كبيرة ودخل الماء خندق بغداد من ناحيته « باب كلواذي » فخيف على المدينة من الغرق . واهتم الخليفة « الناصر لدين الله » بالامر وأمر بسد الخندق فركب فخر الدين نائب الوزارة وعز الدين الشرابي ووقفا ظاهر البلد فلم يبرحا حتى سد الخندق وزال خطر الغرق عن المدينة (٢) .

وبعد مضي عشر سنوات على هذا ، تعرضت بغداد للغرق سنة ٦١٤هـ ـ ١٢١٧م حيث زادت دجلة وأشرفت بغداد على الكارثة المعتادة ، فركب الوزير وكل الامراء والاعيان وجمعوا الحشود من العامة والخواص لتقوية السداد والقورج مما هو بظاهر المدينة ، وقلق السكان وعاينوا الهلاك المحدق بهم وأعدوا السفن للنجاة بانفسهم من الخطر المحدق وظهر الخليفة « الناصر لدين الله » للناس وأخذ يحثهم على العمل ، ومما قال لهم « لو كان يفتدى ما أرى بمال لفعلت ، ولو دفع بحرب لفعلت ، لكن أمر الله لا يرد » .

ونبع الماء من البلاليع والآبار في الجانب الشرقي وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض من محلة الرصافة وجامع المهدي وقرية الملكية والكشك وانقطعت الصلة بجامع السلطان .

(١) الكامل ج ١١ ص ١٨٤ (٢) المصدر السالف ج ١٠ ص ١٢٩

اما الجانب الغربي فتهدم من جراء هـذا الفيضان وفاق خرابه الجانب الشرقي ، فأصيبت محلة « القرية » بكارثة شنعاء وهدمت الدور الواقعة على نهر عيسى وجرفت كذلك الدور الواقعة على الشطيات وغرقت البساتين ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد بن حنبـل والحريم الظاهري وبعض الأقسام من محلة باب البصرة وأكثر محلة « قطفتا » (١) .

فيظهر من هذا الوصف ان الغرق أصاب القسم الأكبر من جسم المدينة ، وان النواحي المجاورة قد غمرت ايضاً .

وفي سنة ٦٢٢هـ ـ ١٢٠٢م في اليوم الثالث من شهر شباط من تلك السنة، سقط ببغداد ثلج وبرد الماء برداً شديداً وقوى البرد، حتى مات به جماعة من الفقراء، وأعقب ذلك ان زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس باصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريباً من الزيادة الأولى، ثم نقص الماء واستبشر الناس (٢) .

وفي سنة ٦٥٣هـ ـ ١٢٥٥م تعرضت بغداد الى الغرق اذ طغا الماء على عمارة الشيخ معروف الكرخي في الجانب الغربي (٣) .

وغرقت بغداد سنة ٦٨٣هـ ـ ١٢٨٤م وبدأ الماء فطغا على الجانب الغربي بعدة نواح ووصل الى قباب « دير الثعالب » وعمارة معروف الكرخي وتهدمت حيطان البساتين وهلكت الأشجار (٤) .

واكتسح فيضان دجلة مدينة بغداد سنة ٧٢٥هـ ـ ١٣٢٤م فوقع الغرق ببغداد ودام الماء متسربا اليها مدة أربعة أيام وغرق « دائر البلد » ومنع

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ١٥٢و١٥٣ (٢) المصدر السالف جـ ١٢ ص ٢٠٧
(٣) تاريخ العراق بين احتلالين جـ ١ ص١٩٦ (٤) المصدر السالف جـ ١ ص ٣٣١

الناس من الخروج من المدينة وحصرتهم المياه فى الداخل ، ولم يبق حاكم ولا قاض ولا كبير ولا صغير إلا نقل التراب وساعد في عمل السدود وإحكامها لمنع الماء من التسرب ، وأصبحت المدينة كأنها جزيرة وسط ماء ، ثم دخلت المياه الخندق وأغرقت كل شيء كان حول البلد وخربت أماكن كثيرة منها مقبرة الامام أحمد بن حنبل ، وقيل تهدم بالجانب الغربي نحــو خمسة آلاف بيت ، وقد دخل الماء فى الدهاليز وبلغ ارتفاعه فيه ذراعا ، ولقد عم هــذا الطوفان أطراف البلاد ولم يكن قاصراً على بغداد (١) .

وثم فيضان كاسح مهــم آخر اجتاح العراق من أقصاه الى أقصاه ، ذلك الفيضان الذى وقع سنــة ١٠٤٣هـ ـ ١٦٣٣م ، فقد طغى الماء فأغرق من بغداد محلة « باب الازج » وغيرها من المحلات الواقعة على الجانب الشرقي . ويعزى السبب فى ذلك الى ان شخصــاً كانت له بستان محاذية لسور القلعــة فنقب من السور ثقباً ليسقي بستانه فاتسع الخرق وتسربت مياه الفيضان وهدمت جانباً من السور فتركه صاحب البستان وانهزم وأخــبر والي بغداد بالأمر وكان إذ ذاك « بكتاش خان » فقام مسرعا وجاء الى محل الكسرة وجمع المهندسين وشاورهم فى الأمر فطلبــوا إحضار أكياس فملأوهــا ترابا وحجارة وخسفت في محل الانهدام وركخلفها الخشب والحطب والتراب حتى انقطع تدفق المياه واطمأن الناس بعد ان عانوا مشقة عظيمة (٢) ، وأفرخ روعهم بعد ان استطيروا فزعا ونجت بغداد من الغرق .

ثم حدث فيضان آخر سنة ١١٨٠هـ ـ ١٧٦٦م ، ففي هــذه السنة رافق

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٨٦-٤٨٧

(٢) المصدر السالف ج ٤ ص ٢٠٤-٢٠٥

زيادة دجلة زيادة الفرات ، وقد أغرق دجلة الجانب الشرقي وانهدم من جراء ذلك الفيضان مائتا دار (١) .

ومن الفيضانات الخطيرة التي اجتاحت بغداد ولم تقتصر عليها بل تعدتها الى العراق وأنزلت فيه الخسائر الجسيمة فى الأموال والأرواح ، الفيضان الذى حدث فى أواخر أيام حكم « داود باشا » المملوك على بغداد فى سنة ١٢٤٦هـ — ١٨٣٠م ، ففى شهر نيسان من تلك السنة تسرب الوباء الى المدينة فتوفى به حتى اليوم العاشر من الشهر المذكور سبعة آلاف نسمة ، وزاد الأمر سوءاً ندرة الطعام وامتناع السقائين عن نقل الماء الى دور الأهلين فعم الشقاء ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد دهاها الفيضان في الواحد والعشرين من نيسان من السنة المذكورة وأحاطت المياه بها ، فغرق ألوف الناس وتعذر نقل الطعام بتاتاً من خارج بغداد الى الداخل لانقطاع الطرق ، وبعد خمسة أيام انهدمت السدة الشمالية من المدينة وقسم من القلعة ، فهجم الماء الى أحشاء المدينة وأغرق ألفي دار في ساعة واحدة ، وفي ظرف أربع وعشرين ساعة أصبح السراي وسبعة آلاف دار أنقاضاً متراكمة ، وشوهدت خيول داود باشا الأصيلة تهيم على وجهها فى الطرقات . ومر على المدينة يومان عصيبان كان الموت يرفرف على هام سكانها ، ثم بدأ ينخفض منسوب الماء ، وفي نهاية الأسبوع الأول من شهر أيار زال الخطر عن المدينة سواء من جهة الطاعون أو الفيضان ، وأخذ الباقون من سكان المدينة الأحياء يدفنون الموتى ، ولكن ذلك كان فوق طاقتهم ، فصاروا يلقون الجثث فى النهر لعدم تيسر الأيدي والقبور ، وجمت الحيوانات الشاردة وظهر الطعام فى الاسواق واعتلى

(١) غرائب الأثر ص ٨

المؤذنون المآذن ، وكان داود باشا قد نجا من اصابته بالطاعون (١) .

ويروي المرحوم الاب انستاس الكرملي الذى شاهد بنفسه كارثة الفيضان التي حصلت سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٦م فيقول :

« حدث هذا الطوفان من جراء سقوط الامطار الغزيرة منذ أواخر شهر كانون الاول سنة ١٨٩٥م واستمرت الى آخر كانون الثاني سنة ١٨٩٦م ، ففاض نهر دجلة فيضانا عظيما كسر الاسداد ، وأغرقت المياه السهول المجاورة لبغداد ، فأمرت الحكومة ان يخرج السكان من الرجال الى ضاحية المدينة لمكافحة السيول المتدفقة صوب المدينة ، وغمرت المياه الشوارع ونبعت الآبار فانهدم ما يزيد على الف بيت وغرق أربعة آلاف نسمة ، واستعمل الناس المعابر للانتقال بها داخل الدور والطرقات ، وغرقت « الاعظمية » اذ دخلتها المياه من سد « أبودالي » ، وانقطعت المواصلات بين بغداد وخانقين ومندلي والموصل وكركوك ، وانقطع طريق هيت - عنه ، وطريق كربلاء - الحلة ، وطريق الكوفة - النجف » .

وفى سنة ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م داهم بغداد الفيضان ، ففي شهر آذار من تلك السنة ، فاض دجلة فأغرق المزارع ، وأسقط الدور على أهلها وأخذت الجثث تطفو على سطح الماء ، وغرق كثير من جانبي الرصافة والكرخ . وفاض نهر ديالى فأغرق بعقوبة ، كما زاد الفرات زيادة عظيمة وأتلف أرض الجنوب .

اما الفيضانات التي داهمت العراق بعد هذا التاريخ ، فانها كانت بمعدل كل خمسة أعوام للفيضان الواحد ، والاحياء لا يزالون يتذكرونها بألم ممض

(١) اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٨٣-٢٨٤

وحزن جازع ، فلا حاجـة لنا بذكرها ووصفها ، فهي مدونة بتفاصيـل في سجلات مديرية الري العامة .

وكان آخر طوفان هو فيضان سنة ١٩٥٤م ولازال آثار تخريباته شاخصة الى يومنا هذا ، وليس لنا فى هذا الصدد إلا ان نأمـل ان يكون هذا آخر طوفان يبتلى به العراق وعاصمته « بغداد » .



الفصل السابع

﴿ الأوبئة والمجاعات التي اجتاحت العراق ﴾

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال »
« والأنفس والثمرات ، صدق الله العظيم »

كان لظهور البطائح والأهوار في أرض السواد أثر سيء جداً على الحياة الصحية والاقتصادية في العراق ، فالأهوار الواسعة التي تكونت بين الكوفة والبصرة أصبحت مباءة واسعة جداً لنمو جراثيم الأوبئة والأمراض العفنة وفي مقدمتها الملاريا ، أخذت هذه الأمراض تفتك بالسكان فتكا ذريعا ، وبذلك تناقص عدد السكان الى ما لايجمل بنا ذكره لتفاهته ، وضعفت أجسام الأجيال والأنسال المتتالية بنتيجتها ، فقتلت الهمم وانتاب القرائح العقم وتفشى الكسل بين السكان ، أو على الأصح بين البقية الباقية منهم ، وكلهم ثلاثة ملايين نسمة مصابون بشتى الأمراض الوبيلة . فقلت الأيدي العاملة واندرثت الصناعات وهجرت الأراضي الصالحة للاستغلال وتعرض الأفراد لمثلث الموت « الفقر والجهل والمرض » بعد أن كانت هذه البلاد عامرة بثلاثين مليون نفس ، وكانت الزراعة والصناعة والتجارة مصدر حسد الدنيا المتمدنة آنذاك ، وكان الناس في خفض من العيش ورغد ، أصحاء الجسم ، أقوياء الأدمغة .

تشير المصادر التاريخية انه اجتاح العراق سنة ٦٥هـ - ٦٨٤م أول وباء

للطاعون ، فجرف مدينة البصرة وكان عاملها آنذاك « عبد الله بن معمر » ، فهلك به خلق كثير لا يحصى عددهم وبه ماتت أم عبد الله الامير فلم يجد أحداً يحمل جنازتها ، فاضطر الى استئجار من يحملها الى مثواها الاخير (١) .

وفي سنة ٨٧هـ ـ ٧٠٥م ظهر وباء الطاعون ثاني مرة في العراق ، وكان شديد الوطأة في البصرة بصورة خاصة ، فحصد أرواح السكان حصداً ومات به عشرات الناس ، ثم عاد الوباء اليها مرة اخرى سنة ١٣٢هـ ـ ٧٤٩م (٢) .

وعندما استولى العباسيون على العراق سنة ١٣٢هـ ـ ٧٤٩م خفت وطأة الاوبئة في العراق ، لان خلفاء الدور الاول العباسيين صرفوا جهودهم في مكافحة الفيضانات ، فأعادوا بناء السدود وتعمير الجداول والترع وحفروا أنهاراً جديدة وبذلك قضوا على هذه الكوارث الدورية .

وبانقضاء العصر الذهبي لحكم بني العباس واستيلاء الشعوبيين على مقدرات تلك الامبراطورية ، أهملت شؤون المرافق العامة على النحو الذي ألمعنا اليه في الفصل السالف ، ونشبت الحروب الداخلية الضارية ، فعادت الاهوار والمستنقعات والبطائح الى ما كانت عليه ، واتسعت مساحات الاراضي التالفة غير الصالحة للزرع من أرض السواد ، أضف الى ذلك ما كان يصيب البلاد من جراد زاحف واحتباس المطر وغير ذلك من الكوارث الطبيعية .

وتقول المصادر التاريخية انه في سنة ٢٥٨هـ ـ ٨٧١م على عهد خلافة المعتمد على الله ، اجتاح الوباء العراق ، وكان ابتداء ظهوره في كورة دجلة ، وانتشر منها الى جميع أنحاء العراق فمات به كثير في « واسط » و « بغداد »

(١) الكامل ج ٣ ص ١٠٣ (٢) المصدر السالف ج ٧ ص ١٠٢

و « سامراء » وغيرها من المدن العراقية (١) .

وفي سنة ٣٢١هـ ـ ٩٣٣م كثرت الامراض « الدموية » بالعراق ومات بها خلق كثير وكان هذا المرض شديد الوطأة في بغداد وخصوصاً بمحلة الحربية ، أغلقت بسببها دور كثيرة لموت أصحابها بهذا الداء الوبيل (٢) .

وفي سنة ٣٢٩هـ ـ ٩٤٠م أصيب العراق بمجاعة عظيمة لانقطاع المطر فيه فاشتد الغلاء ثم تفشى وباء الطاعون بين السكان وكثرت الاصابات به وازداد عدد الموتى فبلغت في اليوم الواحد مئات الانفس ، فعجز الناس عن دفن جثث موتاهم فاخذوا يجمعون عشرات منها ويدفنونها في لحد واحد بدون غسل أو كفن ولا إقامة صلاة جنازة ، ونتج من ذلك ان هبطت أثمان الممتلكات والعقارات في بغداد وغيرها من المدن العراقية حتى بيع ما ثمنه دينار بدرهم (٣) .

وبعد هذه المجاعة والكارثة بسنة واحدة ، أي سنة ٣٣٤هـ ـ ٩٤٥م ، اشتد الغلاء في العراق وخصوصاً في بغداد ، حتى أخذ الاهلون يأكلون لحم الميتة والكلاب والسنانير ، وأخذ بعضهم ومعه صبي قد شواه ليأكله ، وأكل الناس خرنوب الشوك وأكثروا منه ، وكانوا يلقون حبه ويأكلون الباقي . فلحق الناس من جراء ذلك أمراض وأورام في أحشائهم (٤) وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى ، فكانت الكلاب تأكل لحوم الجثث المطروحة في الشوارع والازقة . وانحدر كثير من أهل بغداد الى البصرة بحثاً عن القوت ، فمات أكثرهم في الطريق ، ومن وصل حياً منهم مات بعد

---

(١) الكامل ج ٧ ص ١٠٢ (٢) كذا ج ٨ ص ١٥٢ (٣) كذا ج ٨ ص ١٨٢

(٤) ربما قصد مرض الالتهاب المعوي أو المعدي .

مدة يسيرة وبيعت الدور والعقارات بالخبز (١) .

وفى سنة ٣٤٠هـ ـ ٩٥١م كثرت ببغداد ونواحيها أورام الحلق والماشرا « الخناق » وكثر الموت بهذا المرض ، وكان كل من افتصد نصب الى ذراعيه مادة حادة عظيمة تبعها حمى حادة وما سلم أحد ممن افتصد . وأعقب ذلك وقوع زلازل كثيرة فى سهل العراق وبلاد الجبال متابعة دامت نحو أربعين يوما ، تسكن فى بعض الأحيان وتعود ، فتهدمت الابنية وغارت المياه وهلك تحت الهدم عدد كبير لا يحصى من الانفس (٢) .

وفى سنة ٣٧٨هـ ـ ٩٨٨م تفشى في البصرة والبطائح داء الطاعون فمات به خلق كثير حتى امتلأت الطرق والشوارع بجثث الموتى (٣) .

وفى سنة ٤٠٦هـ ـ ١٠١٥م تفشى فى المدينة نفسها والبطائح وباء الطاعون، وكان شديداً ، وعجز الحفارون عن حفر القبور لمواراة الموتى (٤) .

وفي سنة ٤٢٣هـ ـ ١٠٣١م تفشى فى البصرة مجاعة عظيمة وغلاء شديد وعدمت الاقوات ، وعقب ذلك ان عم الجوع فى سائر بلاد الشرق من العراق حتى الموصل والشام وخراسان وبلاد الجبل وغزنة والهند وكثر الموت ، ثم أعقبه انتشار الجدري فى العراق والموصل ، فأحصي في الموصل فظهر انه مات به أربعة آلاف صبي ولم تخل دار من مصيبة لعموم المصائب ، وممن جدر في هذه السنة الخليفة القائم بامر الله (٥) ثم شفي منه .

وفى سنة ٤٢٦هـ ـ ١٠٣٤م انتشر فى العراق والموصل وخوزستان وبلاد الشام مرض الخوانيق فمات عدد كبير من سكان هذه الاقطار وخصوصاً في

---

(١) الكامل جـ ٨ صـ ١٨٣ (٢) الكامل جـ ٨ صـ ٢٥٦ (٣) الكامل جـ ٩ صـ ١٠٨ (٤) المصدر السالف (٥) الكامل جـ ٩ صـ ١٧٨

العراق حتى كانت الدار يسد بابها لموت أهلها (١) .

وأعقب ذلك أنه في سنة ٤٤٨هـ - ١٠٥٦م انقطعت الطرق عن العراق من جراء الثورات الداخلية فغلت الاسعار واشتدت الوطأة في العراق وانعدمت الاقوات وأكل الناس لحم الميتة مما أدى الى تفشي وباء الطاعون فيه ، وكثرت الاصابات بهذا الداء الوبيل حتى دفن الموتى بغير غسل ولا تكفين وبيع رطل اللحم بقيراط وبيعت أربع دجاجات بدينار ورطلان من الشراب بدينار وسفرجلة واحدة بيعت بدينار ورمانة واحدة بدينار (٢) .

ودخلت سنة ٤٤٩هـ - ١٠٥٧م والغلاء على أشده في بغداد والعراق وبيعت الكارة من الدقيق باثني عشر ديناراً والكارة من الشعير والذرة بثمانية دنانير وأكل الناس الميتة والكلاب وغيرها من الحيوانات ، وأعقب ذلك تفشي الوباء بين السكان ، ولكثرة الوفيات عجز الناس عن دفن الموتى فكانوا يدفنون عشرات الجثث في لحد واحد (٣) .

وأصيب العراق بكارثة سنة ٤٦٨هـ - ١٠٧٥م من جراء انفجار البثوق في مدينة الفلوجة وانقطاع الماء من نهر النيل والقنوات الموجودة في تلك النواحي الى ان قام عميد الدولة « ابن جهير » بسد البثوق سنة ٤٧٢هـ - ١٠٧٩م وقد صحب هذا تفشي وباء الطاعون فمات منهم العدد الوفير .

وبعد مضي سنة على ذلك ظهر الطاعون في الجزيرة والعراق وبلاد الشام وكان وباء جارفاً فمات به عدد كبير من الانفس في العراق حتى بقي كثير من المزارع ليس لها من يعمل فيها لكثرة الموت فى الناس .

وأعقب ذلك موجة من الغلاء اجتاحت العراق فى سنة ٤٩٣هـ - ١٠٩٩م

---

(١) الكامل جـ٩ ص١٨٣ (٢) الكامل جـ٩ ص٢٦٦ (٣) الكامل جـ١٠ ص٤١

بسبب انقطاع الأمطار فى العراق والبلاد المجاورة وجفت الأنهار وحلت المجاعة وتفشت الاوبئة والامراض بينهم وكثرت الاصابات بها حتى عجز الاحياء عن دفن الموتى فحمل فى بعض الاحيان ستة أموات على نعش واحد وعدمت الادوية والعقاقير وارتفعت الأسعار ، فبلغ ثمن الكر الواحد من الحنطة سبعين ديناراً وربما زاد على ذلك كثيراً فى بعض الاحيان ، وقاسى أهل هذه البلاد محنا وأهوالا يقصر عن وصفها اللسان (١) فى هذه الكارثة .

وفي سنة ٥١٣هـ ـ ١١١٩م اجتاح العراق والموصل موجة من الجفاف واحتبس المطر في موسمه فعدمت الغلات فى أكثر البلاد وكان أشده في العراق فارتفعت الاسعار وأجلى الناس بالآلاف عن أرض السواد أراضيهم طلباً للعيش في أماكن اخرى ، وتقوت الناس بالنخالة وعظم الامر على سكان بغداد بالاخص لما كان يأتيه المحتكرون من أفاعيل ، وأعقب ذلك ان تفشى وباء الطاعون بين السكان ومات منهم عدد كبير (٢) .

وفي سنة ٥١٧هـ ـ ١١٢٣م اجتاح العراق والبلاد المجاورة له مجاعة عظيمة فبلغ ثمن الكارة الواحدة من الدقيق الخشكار بستة دنانير وعشرة قراريط ، وتبع ذلك انتشار الامراض الوبائية بين السكان فمات بها كثير من سكان العراق (٣).

وبعد مضي سنة على وقوع هذه المجاعة اجتاح العراق والموصل والجزيرة وبلاد الشام وديار بكر موجة جفاف عظيمة واحتبس المطر فانتشر القحط والغلاء وتفشت الاوبئة بين السكان فمات منهم العدد الكبير، واستمرت المجاعة وانقطاع المطر سنة كاملة (٤) .

---

(١) الكامل ج ١٠ ص ١٢٥ (٢) المصدر السالف ج ١٠ ص ٢٣٠
(٣) المصدر السالف ج ١٠ ص ٢٦٣ (٤) المصدر السالف ج ١٠ ص ٢٦٦

تذكر الروايات التاريخيـة انه فى سنة ٥٣١هـ - ١١٣٦م كثرت الامراض الوبائية فى بغداد وملحقاتها وتوفي عدد كبير من سكانها (١) .

وأعقب ذلك ان أصيب العراق والموصل في سنـة ٥٧٤هـ - ١١٧٨م بالجفاف وانقطعت الامطار تماما واشتد الغلاء وحلت المجاعة، فبيعت الغرارة الواحـدة من الحنطة بدمشق بعشرين ديناراً وبيع فى الموصل كل ثلاثة مكاكي من الشعير بدينار أميري ، وعدمت الاقوات واضطر الناس الى أكل لحم الميتـة واستمرت هذه المحنة زهاء سنة كاملة أي الى أواخر سنة ٥٧٥هـ (٢) .

ثم أعقب ذلك تفشي وباء جارف عام كثر فيـه الموت وكان مرض النـاس شيئاً واحداً هو « المرسام » وعجز الاحياء عن دفن موتاهم لكثرةالاصابات بهذا الداء الوبيل .

ويصف لنا المؤرخ ابن الاثير صاحب الكامل احدى المجاعات التي اجتاحت العراق ومدينة الموصل في سنة ٦٢٢هـ - ١٢٢٥م وقد شاهدها فى الموصـل بنفسه قال :

« فى هذه السنة ، ليلة الواحد والعشـرين من شهر صفر ، زلزلت الارض بالموصل وفي العراق وفي ديار الجزيرة زلزلة متوسطة الشـدة وأعقب ذلك موجة من الغلاء اجتاحت الموصل وديار الجزيرة، فأكل الناس الميتة والكلاب والسنانير بعد ان كانت كثيرة . ولقد دخلت يوما الى داري فرأيت الجواري يقطعن اللحم ليطبخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثنى عشر سنوراً ، ورأيت اللحم فى هذا الغلاء فى الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها ... » .

---

(١) الكامل ج ١١ ص ٢٥ (٢) الكامل ج ١١ ص ٢٠٤

ثم يواصل هذا المؤرخ حديثه عن ارتفاع الاسعار فيقول :

« وغلا مع الطعام كل شيء، فبيع الرطل من الشيرج في الموصل بقيراطين بعد ان كان يباع بنصف قيراط ، واما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا يباع بدينار . ومن العجيب ان السلق والجزر والشلغم بيع كل خمسة أرطال بدرهم وبيع كل ستة أرطال من البنفسج بدرهم وهذا ما لم يسمع بمثله ... » .

ثم ينهي المؤرخ حديثه عن جشع المحتكرين فيقول :

« ولقد رأينا ما لم نر ولا سمعنا بمثله، فان الدنيا ما زالت قديماً وحديثاً اذا غلت أسعار المواد الغذائية ثم جاء الغيث رخصت الاسعار إلا هذه السنة . فان الامطار ما زالت متتابعة من أول الشتاء حتى آخر الربيع وكلما جاء الغيث كلما غلت الاسعار وهذا ما لم يسمع بمثله . ولقد بلغ سعر المكوك الواحد من الحنطة بدينار وقيراط . وبلغ سعر المكوك الواحد من الملح بعشرة دراهم وكان يباع قبل ذلك بدرهم واحد . وبلغ سعر المكوك الواحد من الارز بخمسين درهما وكان يباع قبل ذلك باثني عشر درهما . وكان سعر التمر كل أربعة أرطال تباع بقيراط فصار كل رطلين يباع بقيراط » .

ومن عجيب ما يحكى ان السكر النادر الاسمر كان كل رطل بدرهم وكان السكر الابلوج المصري النقي كل رطل بدرهمين فصار السكر الاسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الابلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع ، وسببه ان الامراض لما كثرت واشتد الوباء قالت النساء هذه الامراض باردة والسكر الاسمر حار فينفع منها والابلوج بارد يقويها، وتبعهن الاطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهن فغلا الاسمر بهذا السبب ، وهذا من الجهل المفرط وما زالت الاشياء هكذا الى أول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت والمرض فى الناس

فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى (١) .

وفى سنة ٦٧٦هـ — ١٢٧٧م انقطعت الامطار فى العراق والموصل ومحلت الارض وغلت أسعار المواد الغذائية وتعذرت الاقوات على السكان وماتت المواشي وانتهت السنة والغلاء على أشده ، ثم دخلت سنة ٦٧٧ هـ والمجاعة في بغداد وغيرها من المدن مستمرة .

ولم يمض على هذه الكارثة سنة واحدة حتى أعقبها بمجاعة اخرى اجتاحت بغداد فى سنة ٦٧٩هـ — ١٢٨٠م والمدن العراقية الاخرى ، فهلك من جراء ذلك مئات الالوف من الانفس .

وهكذا توالت المجاعات على العراق الواحدة تلو الاخرى ، ففي سنة ٦٨٤هـ — ١٢٨٥م أصيبت بغداد بمجاعة كبيرة فبلغ فيها سعر الكر من الحنطة مائة وثمانين ديناراً والكر الواحد من الشعير مائة دينار وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم وباع فقراء بغداد أولادهم، وأكل الناس ورق الجزر واللفت والبصل وما أنبتته الارض كعروق القصب والبردي والحلفاء، وانقضت السنة وسكان بغداد فى أشد ما يكون من البلاء والجوع والفاقة حتى فرج الله عنهم هذه المحنة ومات منهم عدد كبير .

وفي سنة ٦٩٥هـ — ١٢٩٥م اجتاحت العراق والموصل والجزيرة وديار بكر موجة جفاف نتج منها هلاك المزارع وأعقبها مجاعة في بغداد والموصل ، فأكل سكان هذه البلاد الميتة وباع الفقراء أولادهم .

وفي سنة ٧١٣هـ — ١٣١٧م انتشر مرض الطاعون فى سائر العراق وفتك بالسكان فتكا ذريعاً، وأعقب ذلك موجة من الغلاء اجتاحت بغداد والموصل

---

(١) الكامل جـ ١٢ ص ٢٠٥—٢٠٦

وأربل والجزيرة وفي سنة ٧٩٨هـ ـ ١٣٢٣م كان غلاء وجلاء حتى بيعت الاولاد وأكلت لحوم الميتة واستمرت الاوبئة والمجاعات تشن هجماتها الكاسحة على الاهلين منزلة بهم أفدح الخسائر في الارواح بفترات متقاربة من الزمن.

وتروي لنا المصادر التاريخية عن وقوع مجاعة في بغداد سنة ١٠٣٠هـ ـ ١٦٢٠م فيها عم القحط بغداد فاحتبست الامطار عنها وقلت الاعمال بسبب هذا وأخذ الناس يهجرون بغداد ، وأمحلت أراضي البدو ولم يروا قطرة مطر أو أثراً للكلأ فماتت مواشيهم ورموا بانفسهم الى بغداد وصاروا يشكون الجوع وازدادت الحالة تحرجا وكان المصاب فادحا مؤلماً.

وأصيبت بغداد سنة ١٠٣٢هـ ـ ١٦٢٢م بمجاعة اخرى من جراء حصار الشاه عباس الايراني لها فبلغ الاسى فيها الى ان أخذت الامهات يأكلن لحوم أولادهن وبلغت قيمة الحمار الف أقجة .

وبعد مضي فترة قصيرة من الزمن على وقوع ذلك ظهر الوباء سنة ١٠٤٥هـ ـ ١٦٣٥م فابتلي الاهلون به وكان فتكه بالناس عظيما حتى لم يبق من يدفن الموتى أو يحمل الجثث حتى انهم لجأوا الى سحبها من أرجلها ورموا بها في دجلة ، وبيعت قربة الماء بخمسة عباسيات لعدم وجود السقائين .

وفي سنة ١٠٥٥هـ ـ ١٦٤٥م احتبس المطر عن سماء الموصل ، والذى كان قد نبت من الزرع جاء الجراد النجدي واكتسحه اكتساحا ، وهرب الفلاحون من القرى طلباً للعيش فخربت قراهم وبقيت مهجورة مدة من الزمن .

وفي سنة ١٠٩١هـ ـ ١٦٨١م أصيبت الموصل بمجاعة عظيمة وانعدمت فيها الاقوات ومات منها خلق كثير .

وفي سنة ١١٢٠هـ ـ ١٧١٠م اشتد البرد في الموصل وعم القحط والغلاء فيها ايضاً واستمر ثلاثة أعوام وجمدت دجلة فمشت الناس عليها ، وبيعت ستة أرطال من الحنطة بثمانية دراهم والرطل الواحد من الشعير بدرهم ورطل الملح بدرهم ، ومات من جراء هذه المجاعة خلق كثير .

يصف لنا الاب دومينيكو لانزا الايطالي الذى كان قد أقام فى الموصل مدة من الزمن وشاهد بعينه احدى المجاعات التي اجتاحت هذه المدينة وتوابعها في سنة ١١٧١هـ ـ ١٧٥٧م فيقول :

« عندما حل الشتاء في الموصل وفيه اشتد البرد وقسا حتى ان نهر دجلة جمد تماما بسبب هذا البرد الهائل ، فمات عدد كبير من الحيوانات الوحشية والاهلية وهي من ينابيع الثروة فى البلاد وقوتها الى حد كبير ، وأعقب ذلك غلاء الاقوات في دياربكر وماردين والبلاد المجاورة وأكثر ما كان في الموصل فقد كان فيها غلة ولو بسعر عال ، وكان خلق كثيرون يردون اليها زرافات طلباً للطعام ، فامتلأت المدينة بالفقراء من أهالي القرى ومن المهاجرين اليها ، فكانت الحالة التي انحطوا اليها من بؤس وشقاء حتىاضطروا معها الى بيع جميع أمتعتهم بأبخس الأثمان مما نحرك في الانسان الشفقة والعطف وانه لما يفطر القلب ان آل بهم الحال الى ان يبيع الآباء أولادهم والازواج نساءهم لمد حياتهم مدة قصيرة ولا يعثمون ان يفقدوها هالكين من آلام الجوع التي تزيد فيها قسوة الشتاء وكانت جثثهم تبقى على قوارع الطريق بلا دفن .

« ولما انقضى الشتاء ونبت العشب فى أواخر شباط ، أمر الباشا والي المدينة آنذاك بالزام الفقراء الغرباء بالخروج من البلدة لتخفيف الشقاء عنها ، فسافر

هؤلاء النساء واتجه بعضهم الى بغداد والبعض الآخر الى كردستان وصاروا يقتاتون بالأعشاب كالبهائم ، فخارت قوى الكثير منهم مما عانوه من قبل فصاروا يموتون جوعا والعشب فى أفواههم ، وغطيت البرية بعدد لا يحصى من جثثهم. ولما خفت الحالة قليلا في الموصل بمغادرة الغرباء وقسم من السكان الأصليين فجعوا بهجوم الجراد بكثرة هائلة أكل جميع المزروعات فى أيام قليلة ، فغادر عدد كبير من سكانها الى بغداد والبلاد المجاورة كاران ودياربكر . وقد تعفنت الحقول بجثث هؤلاء المشردين ، واما الذين بقوا في المدينة فصار يموت كل يوم عدد عظيم منهم وبقت جثثهم مطروحة في الأزقة تأكلها الكلاب أو تجر وتلقى في النهر ، أضف الى ذلك ان تفشت الحميات الخبيثة طوال عام ١٧٥٧م فامتلأت البيوت بالمرضى والمقابر بالموتى .

« وفي سنة ١١٧٥هـ ـ ١٧٦١م انتشر الطاعون فى الموصل منتقلا اليها من كردستان حيث أهلك الكثيرين من الذين كانوا قد نجوا من المجاعة التي حدثت قبل سنة من التاريخ المذكور .

وعاد الطاعون الى الموصل مرة أخرى سنة ١٧٧٣م وكان الوالي آنذاك قد أوعز الى حراس الابواب في المدينة ان يحصوا كمادتهم كل يوم عدد الجنائز التي تخرج من السور ، فوجد عند انتهاء الطاعون ان أكثر من مائة الف ميت (١) دفنوا خارج المدينة ، أضف الى ذلك الكثيرين الذين دفنوا فى المقابر داخل البلدة ، وقد عم هذا الطاعون العراق باجمعه .

وتروي المصادر التاريخية عن كارثة هذا الطاعون بانه لم ينج منه رجل ولا امرأة ، ودام يفتك بالناس حتى آخر شهر محرم سنة ١١٨٧هـ ـ ١٧٠٥م بعد

(١) في هذا العدد مبالغة وسوء تقدير واضحان .

ان كان مبتدأه في أوائل شعبان من السنة نفسها .

وفي سنة ١١٢٠هـ - ١٧٠٨م احتبس المطر في العراق والموصل وأمحلت الارض ولم ينبت أي زرع ، فأصاب البلاد من جراء ذلك مجاعة مخيفة وغلت الاسعار فبلغ ثمن الوزنة الواحدة من الحنطة في بغداد سبعة قروش ووزنة الشعير خمسة قروش ، فالفقراء من السكان ماتوا جوعا لان الشراء لم يتيسر لهم ، ودامت المجاعة زهاء سنتين ونصف سنة ، في آخرها تفشى الطاعون في بغداد على الاخص .

اما في الموصل فيقول صاحب غرائب الأثر عن هذه المجاعة :

« كان القحط في الموصل ولم تقطر السماء قطرة واحدة من المطر ولم تنبت الارض واشتد البلاء وعظم الغلاء وبيعت الحنطة كل رطل منها بدرهم ونصف وبيع الرطل الواحد والنصف من الشعير بدرهم ، فماتت المواشي لعدم وجود المراعي وبيعت البقرة والثور بقيمة الجلد وبيع الرطل الواحد من اللحم بثلاثة أقجات وبيعت الفرس الجيدة بعشرين قرشاً ، وباع أهل الموصل جميع ما يملكون من حلى وعقارات لكي ينقذوا أرواحهم من هذه المجاعة العظيمة ، وعم الغلاء جميع القرى والنواحي التابعة لمدينة الموصل وهرب سكانها الى أماكن بعيدة في طلب الاقوات ومات من السكان عدد كبير لا يحصى » .

وفي شهر ربيع الثاني من سنة ١٢٠٠هـ - ١٧٨٥م اجتاحت العراق مجاعة عظيمة حيث لم يقع مطر ولا حصل نبت ، فتولد في بغداد والمدن العراقية الاخرى القحط ، فبلغت قيمة وزنة الحنطة سبعة قروش أو ثمانية ووزنة الشعير خمسة أو ستة قروش ، لكن الضعفاء لم يتيسر لهم الشراء فنالهم عناء كبير ومات

أكثرهم جوعا ودام سنتين ونصف السنة وفي آخرها صار الطاعون ، وفي هذه الكارثة وزع الوزير « والي بغداد » على الاهلين مخازن الاطعمة باقل من السعر المقرر ولم يبق ما يكفي للحاجة . ومع هذا هاجت الناس وماجت في كل أنحاء بغداد في الحلة والحسكة والاطراف الاخرى فحصل ضيق وزاد الخطر فلا يمضي يوم إلا والغلاء في ازدياد فصار الناس يأكلون الكلأ ويمصون الدماء ويتناولون ما هو منهي عنه لما نالهم من السغب وأصابهم من الضعف (١) .

وفي سنة ١٢١٠هـ - ١٧٩٥م تفشى وباء الجدري والحصبة في بغداد والموصل فكان يموت بهما من الاطفال والبالغين أكثر من مائة نسمة يومياً .

واجتاح الجدري الموصل سنة ١٢١٣هـ - ١٧٨٨م وحصد أرواح الاطفال حصداً .

ويروي مؤلف كتاب غرائب الأثر فيقول :

« في سنة ١٢١٤هـ - ١٧٩٩م وفد من ديار بكر وباء الطاعون الى الموصل وابتدأ يفتك بارواح السكان وظهر في أوائل نيسان من السنة المذكورة في محلة خزرج وسرى منها الى المحلات الاخرى من المدينة ، واستمر هذا الداء الوبيل يفتك في أرواح الناس حتى منتصف شهر صفر سنة ١٢١٥هـ وكان يموت به في اليوم مائة وثمانون نسمة . ثم انتقل منها الى كركوك والسليمانية وكان في المدينة الاخيرة جارفاً ويقال انه مات به من سكان السليمانية ثمانية عشر الف نسمة (٢) ثم ظهر الطاعون في صوب الكرخ من بغداد في سنة

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٩٧-٩٨

(٢) لا شك وان في هذا العدد من الضحايا الذي أورده صاحب المرجع مبالغة -

١٢١٦هـ - ١٧٩١م ثم سرى منها الى الرصافة من بغداد وأخذ السكان يهربون منه الى ضواحي المدينة وخرج من بغداد هاربا من هذا الوباء الوالي سليمان باشا الكبير وقدم الى سامراء ، ثم خفت وطأته ، ثم عاد المرض الى بغداد سنة ١٢١٧هـ - ١٧٩٢م في شهر ذي الحجة ، وكان يموت به في اليوم مائة وخمسون أو أكثر من الانفس واشتدت وطأته في سنة ١٢١٨هـ - ١٧٩٣م وكان يموت به في هذه المرة في كل يوم نحو اربعمائة نسمة » .

وفي سنة ١٢١٩هـ - ١٧٩٤م تفشى في الموصل وباء الجدري والحصبة وسرى منها الى القرى والعربان النازلين بفنائها وبلغ عدد الوفيات في الموصل في اليوم الواحد ستين نفساً .

وفي سنة ١٢٣٦هـ - ١٨٢١م تفشى في العراق داء الهواء الاصفر « الهيضة » (١) وكان ظهوره في أول الامر بمدينة البصرة وكان جارفاً ، فأخذ يفتك في النفوس فتكا ذريعاً وازداد شره وانتشر كالنار في الهشيم واستمر في البصرة زهاء الشهر . ظهر في أواخر شهر شوال من تلك السنة ، وخفت وطأته في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة ، وقد مات به من أهل البصرة خمسة عشر الف نسمة وسرى منها الى بغداد والى كركوك والى السليمانية ثم الى الموصل ومنها الى ديار بكر ومات به مئات الالوف .

وفي سنة ١٢٤٧هـ - ١٨٣١م انفجر الطاعون في بغداد وكان شديد الوطأة ، فقد محا البيوت الكبيرة وقضى على حكم المماليك في العراق بالانقراض .

ـ واضحة كما في الاعداد والاحصاءات التي أوردها فيما بعد اذ من الثابت ان سكان السليمانية في ذلك الوقت لم يكن عددهم يتجاوز الرقم الذي أورده صاحب غرائب الأثر ، وتلك عادة مؤرخينا .

(١) ويسمى عندنا الزوعة .

وتسرب الطاعون الى بغداد حتى ١٠ نيسان سنة ١٨٣١م فمات بعد مرور خمسة عشر يوما على أول اصابة به سبعة آلاف نسمة ، وأخذ عدد المطعونين يزداد يوما بعد يوم وصدق من قال اذ ذاك ان بغداد مدينة الأموات .

على ان الشقاء لم يقف ببغداد عند هذا الحد فقد دهاها الفيضان فى ٢١ نيسان من تلك السنة ١٨٣١م وأحاطت بها المياه فغرق الأحياء والأصحاء من سكانها ايضاً .

اما الأوبئة والمجاعات التي حدثت بعد هذا التاريخ فهي معلومة لقرب عهدنا بها فلا حاجة لذكرها الآن .

﴿ سكان البطائح في أراضي السواد ﴾

انتشرت البطائح في أرض السواد من جراء انهدام مواضع البثوق والسدود وتغلب الماء على النواحي المنخفضة واستفحل أمرها، وأخذت تتسع سنة بعد سنة .

وتروي المصادر التاريخية انه في العهد العباسي كان قد دخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل اليها الماء فشيدوا فيها القرى وسكنها قوم من الأقوام وزرعوها الأرز .

ولما انقضى الدور الأول من الدولة العباسية وتغلب بنو (بويه) استقر في البطائح أقوام من أهلها وتحصنوا بالمياه والسفن وخرجوا عن طاعة السلطان البويهي وصارت تلك المياه لسكانها كالمعاقل الحصينة وقطعوا كل صلة مع الحكومة المركزية في بغداد وألف زعماؤهم مشيخات يتولى ادارة كل مشيخة منها زعيم من أبناء العشيرة وبقوا على هذه الحالة الى ان انقضت دولة آل

بويه ، ثم دولة آل سلجوق من بعدها .

ولما استعاد خلفاء العباسيين بعض نفوذهم في ملكهم رجعوا الى طاعة بني العباس واحترموا النظام وأخذوا يؤدون الخراج الى عمال الخلفاء كما كان الأمر معهم من قديم الزمان (١) .

وعندما اكتسحت جيوش المغول العراق وقوضت عرش بني العباس في بغداد وتوغلت في جميع أنحاء العراق ، عاد سكان البطائح الى الانفصال عن الحكومة المركزية في بغداد وألف زعماؤهم حكومات محلية وتحصنوا في قراهم المحاطة بالمياه من جميع جهاتها ، وأصبحت البطائح معقلا للهاربين من ظلم المغول وقسوتهم من أبناء العراق كافة . وازداد نفوذ الشيوخ والزعماء الذين كانوا يسيطرون على البطائح ونشأت الأقطاعيات وأصبحت كل مشيخة مؤلفة من عدة قرى يسكنها أبناء عشيرة واحدة مستقلة عن المشيخات الأخرى وأصبح شيخ القبيلة هو الحاكم بامره يدبر شؤون عشيرته وفق التقاليد والعادات الموروثة منقطعة عن العالم الخارجي يعيشون فيها على زراعة الأرز والدخن وتربية الماشية عراة حفاة تفتك بهم الأوبئة والأمراض المعفنة ويستولي الجهل على عقولهم والتعصب الأعمى غشاوة على عيونهم، محرومون من كل وسائل الحياة والعيش التي تكفل لهم البقاء يمثلون في حياتهم الاجتماعية الانسان الأول القديم ، دأبهم السلب والنهب وشن الحروب بعضهم على بعض ولا يملك الفرد منهم من وسائل العيش شيئاً يصح نعته بالمقتنى . يعيشون على خبز الدخن والأرز المسلوق وصيد الاسماك ، وقد ظلوا على حالتهم هذه حتى الفتح العثماني للعراق .

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٢٢

﴿ البطائح على عهد الدولة العثمانية ﴾

استولى العثمانيون على العراق في عهد السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤١هـ ـ ١٥٣٤م ، على ان هذه الدولة لم تتمكن من بسط نفوذها التام، إلا بعد ان تربع السلطان مراد الرابع على عرشها سنة ١٠٣٢هـ ـ ١٦٢٢م وقضى على نفوذ الفرس وغاراتهم على العراق .

ان حكم الولاة العثمانيين كان نافذاً في المدن والقصبات ، اما القبائل التي كانت تقطن على ضفاف الأنهر من جنوب بغداد حتى الخليج الفارسي فانها كانت مع ولاة الدولة العثمانية في حروب مستمرة . ولقد حاولت جيوشها مراراً وتكراراً إخضاعهم بارسال الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى زهاء ثلاثة قرون متواصلة . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى شرع ولاة بغداد يزرعون بين سكان البطائح روح التفرقة والتباغض ، فكانوا يُنعمون على بعض الشيوخ والزعماء منهم بالألقاب ويغدقون عليهم العطايا من أراض وأموال دون الآخرين لكي تبث روح التنافس والحسد فيما بينهم فيلجأوا الى ضرب بعضهم بعضاً . كما ان الحملات التأديبية التي كانت ترسلها الدولة العثمانية كانت لا تحقق إلا بعض نصر موقت ، اذ ما تكاد تعود الى قواعدها بعد حملة تأديب عارمة ، حتى يثور سكان البطائح مرة اخرى ويعلنون تمردهم وعصيانهم . ولا يزال الأحياء من الشيوخ من أبناء بغداد والموصل يذكرون وقائع المنتفق والشطرة ، وربما تخلفت بقية باقية ممن ساهم فى تلك الحملات تروي لنا أخبار هذه الحروب كتاريخ قريب .

في خلال هذه الحقبة الطويلة من تاريخ العراق بقي سكان البطائح منقطعين

- أو يكادون - عن العالم الخارجي ، محرومين من كل وسائل التمدن الحديثة صحية كانت أم ثقافية أم اجتماعية ، محتفظين في الوقت نفسه بسجاياهم العربية الخالصة كالكرم والشجاعة والذكاء الفطري وسرعة الخاطر وقوة الملاحظة والسليقة الشعرية والأخذ بالثأر وحماية الجار والمحافظة على العهد . وهكذا فانهم بقوا في كفاح مستمر مع الدولة العثمانية وتنكر دائم لها ، حتى انحسر ظلها عن العراق على أثر احتلال الجيش البريطاني للعراق أثناء الحرب العالمية الأولى .

﴿سكان البطائح أثناء الاحتلال البريطاني﴾

أخذت الحكومة البريطانية المحتلة بسياستها الاستعمارية المعروفة مع سكان البطائح ، وقام الحكام السياسيون يغدقون العطايا والأموال على بعض الشيوخ ويتقربون اليهم بشتى الوسائل . على ان سكان البطائح شاركوا في الثورة العراقية وساهموا في مقاومة الاستعمار البريطاني مقاومة فعالة ، فأعلنوا الثورة على الجيش المحتل وأغاروا عليه باسلحتهم البدائية وأوقعوا فيه خسائر جسيمة وكان لهم النصيب الأوفر والفضل الأكبر في قيام الحكم الوطني في العراق ، وفي استقلاله بعد ان حلت النكبات والخسائر الجسيمة وتحملوا القسط الأوفى من خسائر الحرب .

ومنذ قيام الحكم الوطني في العراق وأحوال البطائح في تحسن وتقدم مستمر ، فقد شرعت الحكومة تبذل الجهود في اصلاح حالة قاطنيه بنشر الثقافة الحديثة ومكافحة الأمية بفتح المدارس وانشاء المستشفيات وتجفيف المستنقعات تدريجاً وفتح الطرق وتعبيدها وتسهيل سبل العيش وتوطيد الأمن وتأسيس

العدل ونشر الطمأنينة وبث روح التعاون في تلك الربوع من هـذا الوطن العزيز .

والامل قوي بعون الله تعالى انه متى ما تمت مشاريع تنظيم الري والسيطرة على الفيضانات وتقسيم الاراضي الصالحة للزراعة على مستحقيها من الفلاحين وانشاء الخزانات للمياه الفائضة ، ومتى ما تحققت المشاريع العمرانية الاخيرة ومنها انشاء القرى العصرية وانشاء الملكيات الصغيرة على ما المعنا اليه ، تحرر الفلاح من قيود الاقطاع التي كبلته بها القيود الغابرة ، وبهذا ستعود البطائح الى سابق عهدها وتسترجع مجـــدها الغابر وتعـود كما كانت تسمى (جنة عدن) والله ولي التوفيق .

(تم الكتاب)

فهرس بأسماء أشهر الاعلام



محتويات الكتاب

﴿ الفصل الرابع ﴾

صفحة

﴿ الفصل الخامس ﴾

﴿ الفصل السادس ﴾

﴿ الفصل السابع ﴾

تصحيحات

نعتذر للقاريء عن وقوع بعض أخطاء مطبعيـة، راجين ان يتفضل باصلاحها قبل قراءة الكتاب :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٠	٨	تطوانية	قطوانية
٣٢	٣	أخللت	أحللت
٣٧	١٢	يفول	يقول
٤٤	٤	لابن قدامة	لقدامة
٦٠	١	براز الرور	براز الروز
٨٠	٧	من ناحيته	من ناحية

كتب المؤلف

١– كتاب الآثار والمباني العربية الاسلامية فى الموصل (الموصل ١٩٤٠)

٢– خريطة الموصل فى العهد الاتابكي (بغداد المساحة ١٩٤٨)

٣– تاريخ المحاكم والنظم الادارية فى الموصل (الموصل ١٩٤٩)

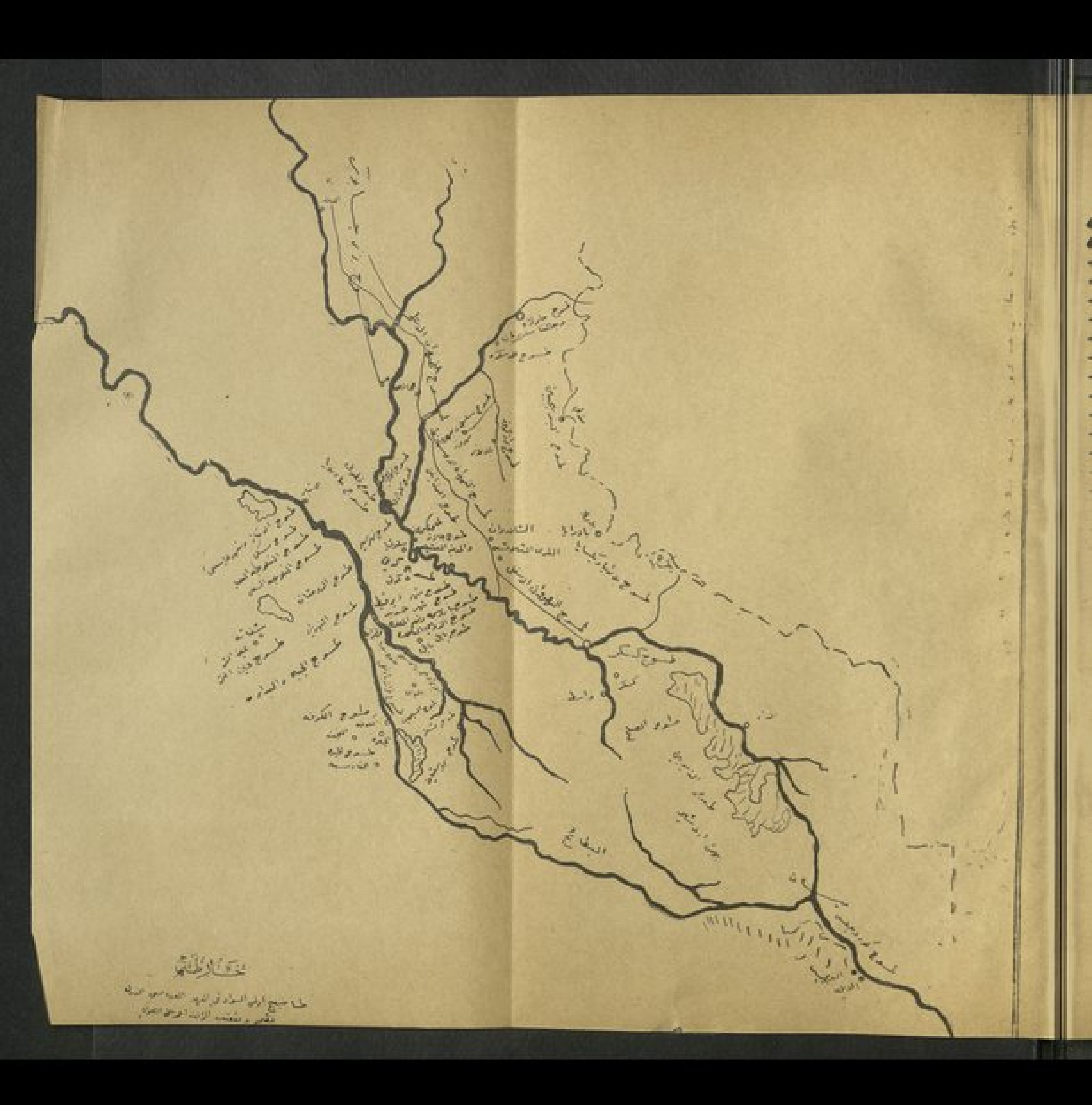
٤– المماليك في العراق (الموصل ١٩٥٢)

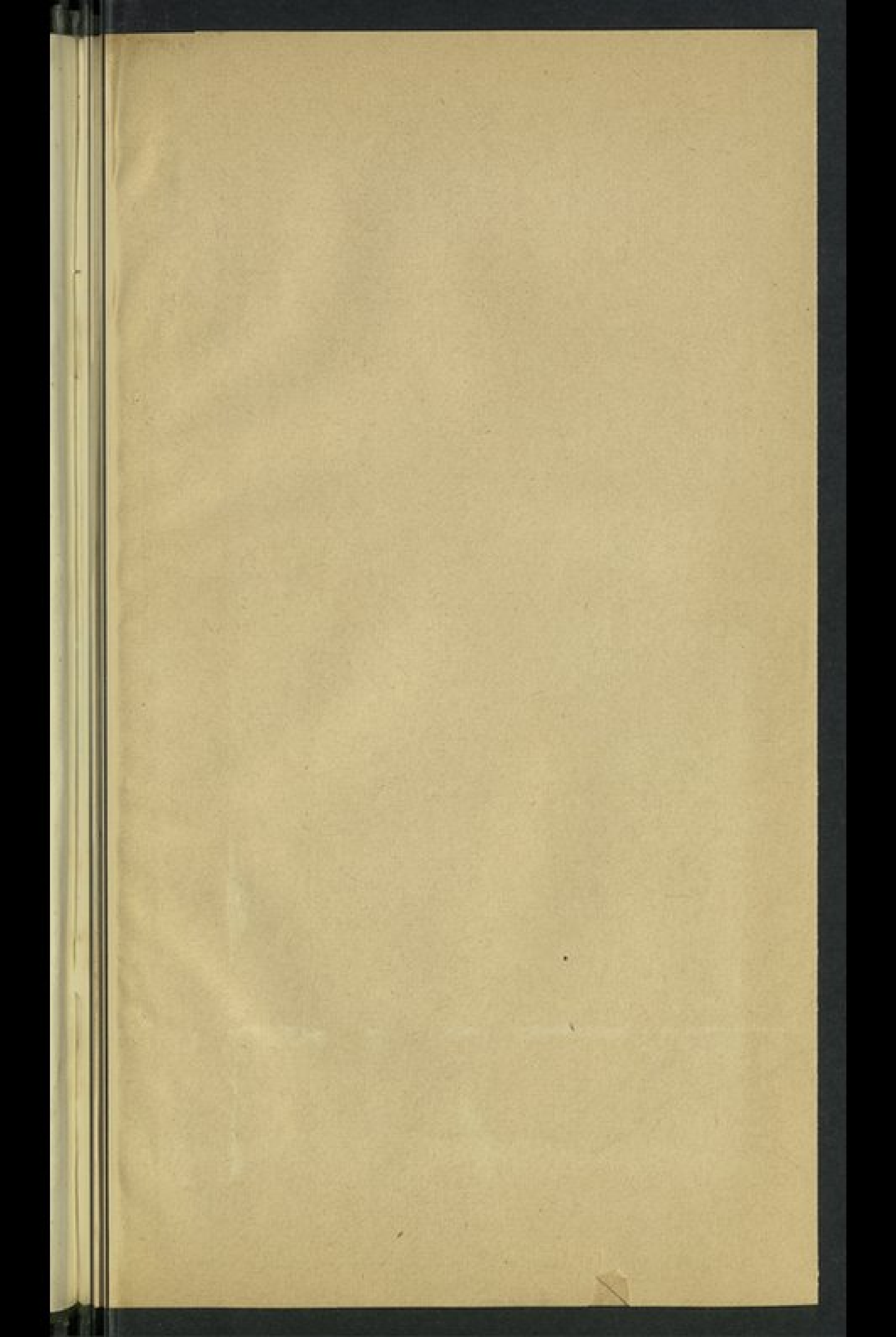
٥– خطط الموصل الجزء الاول (الموصل ١٩٥٣)

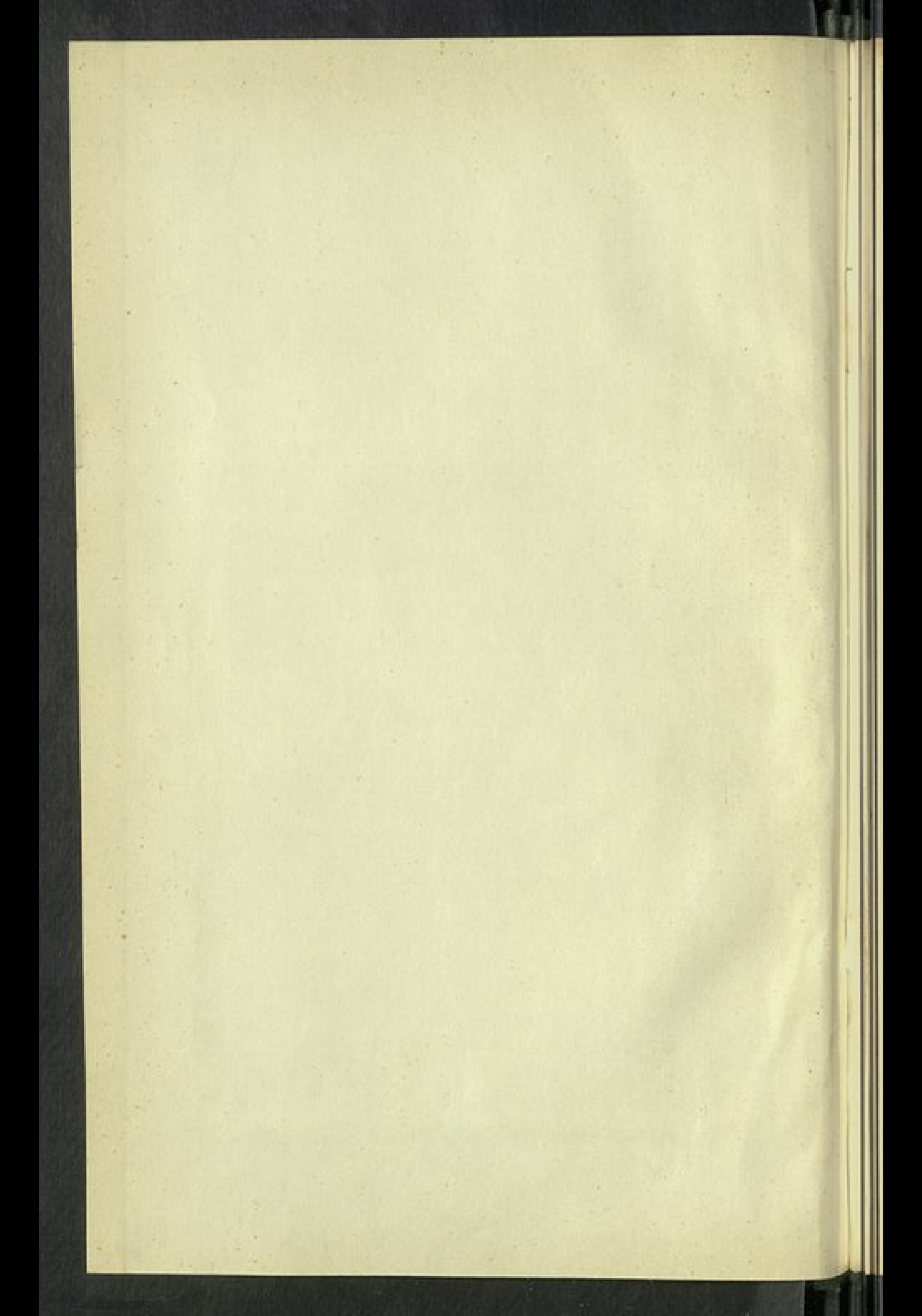
٦– خطط الموصل الجزء الثاني (الموصل ١٩٥٣)

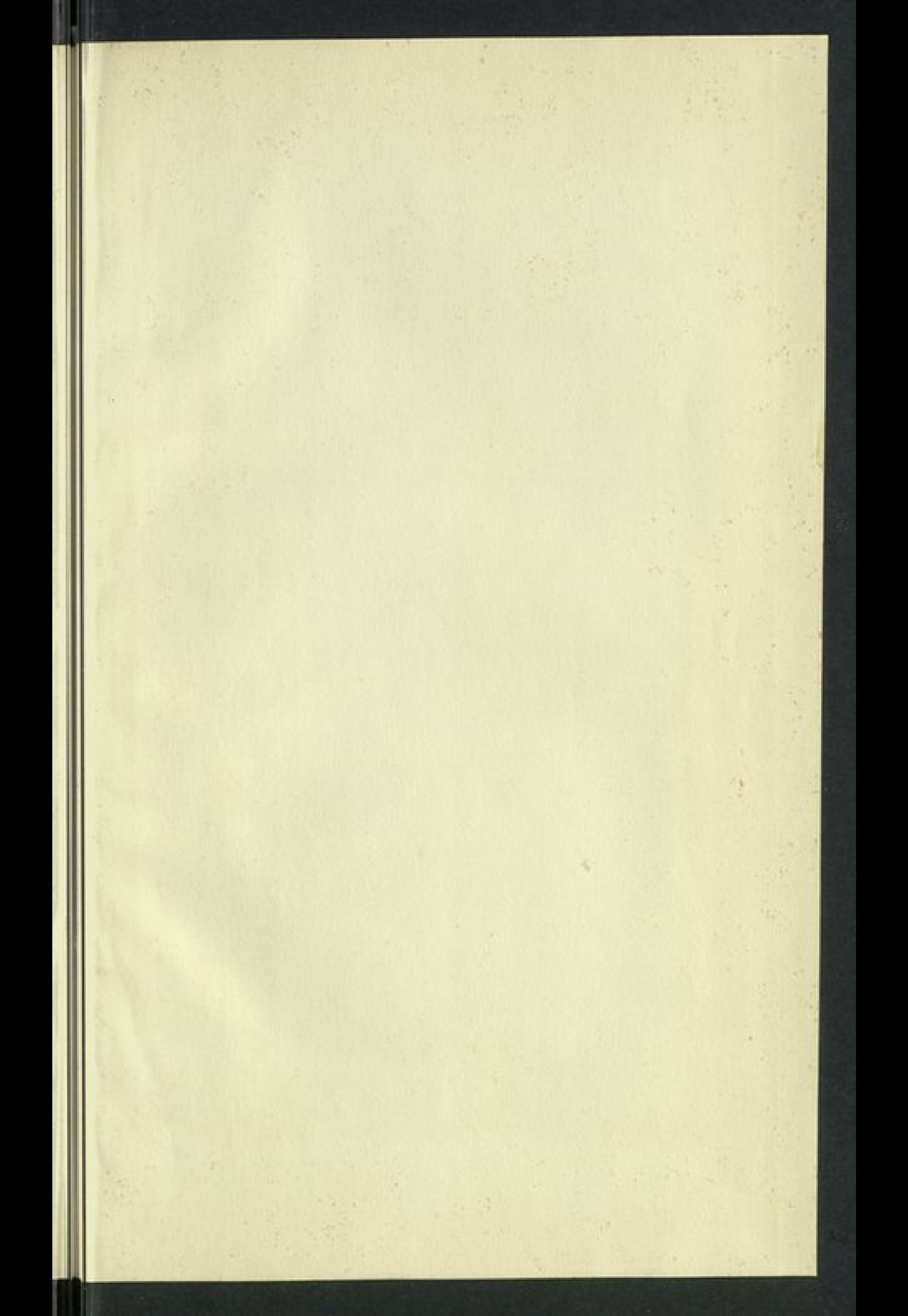
٧– أرض السواد (الموصل ١٩٥٥)

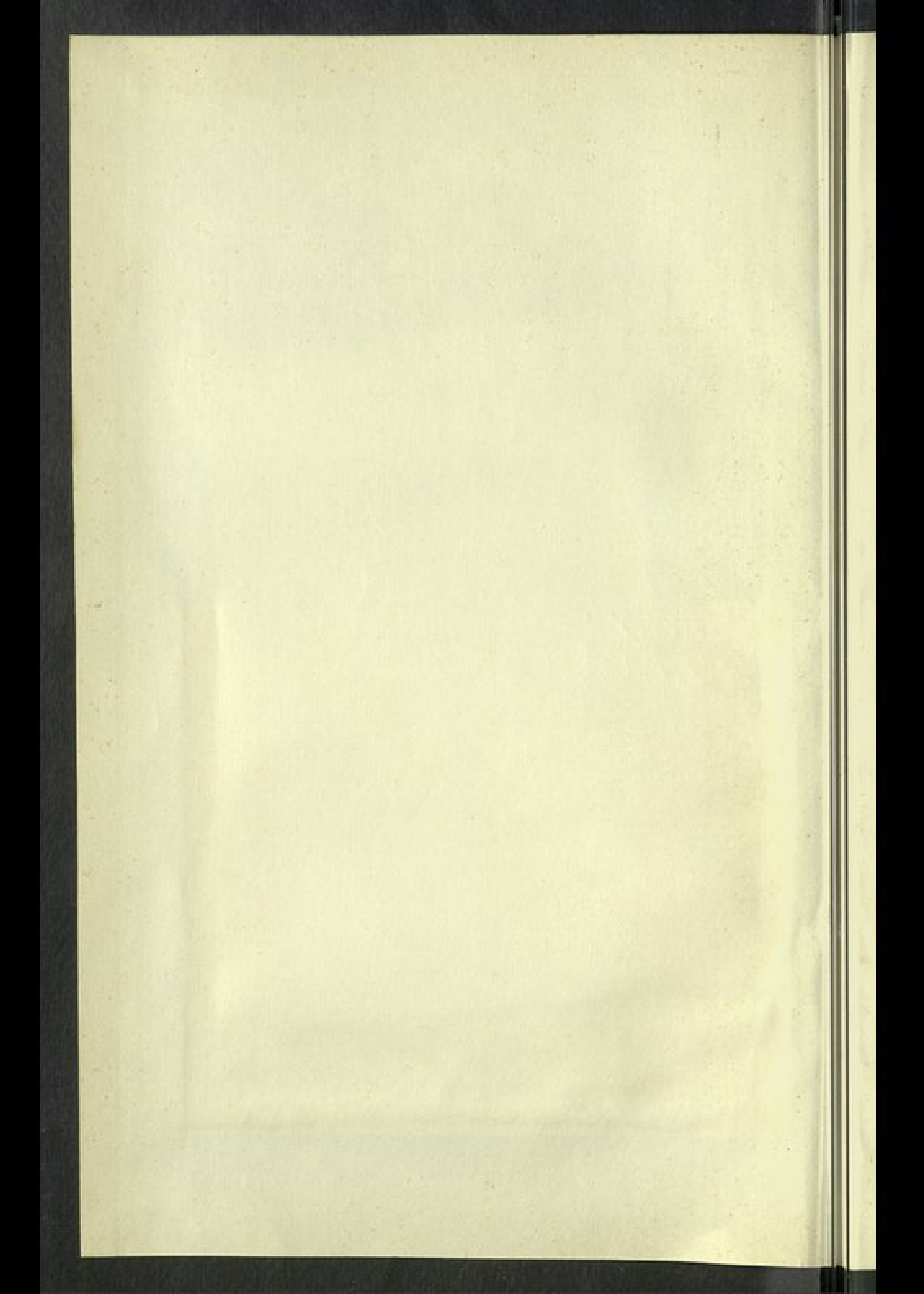
٨– الحكايات الشعبية الموصلية (جاهزه للطبع)

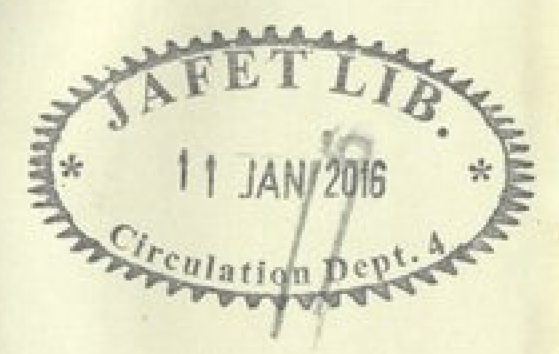











JAFET LIB.
* 11 JAN 2016 *
Circulation Dept. 4